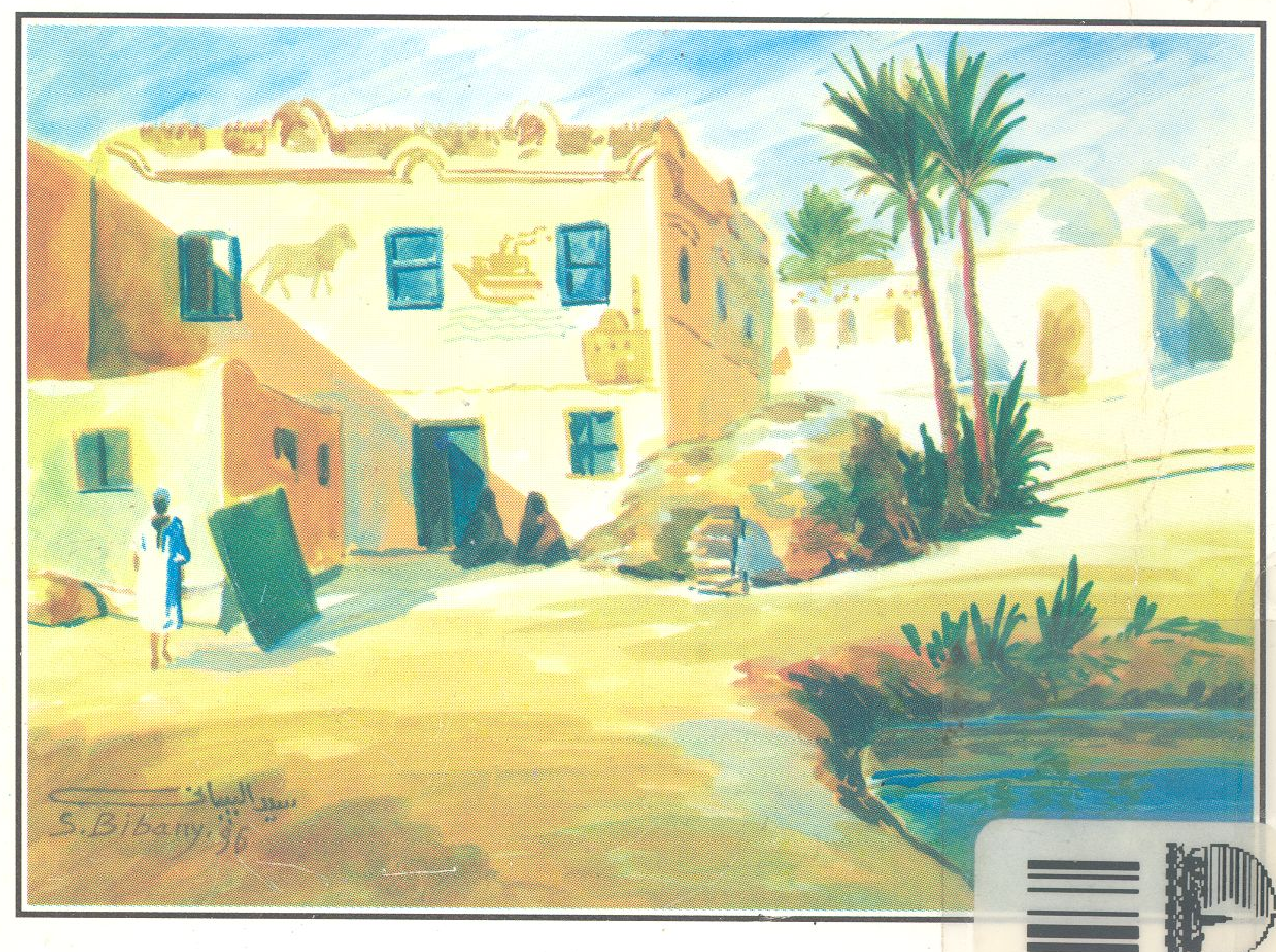
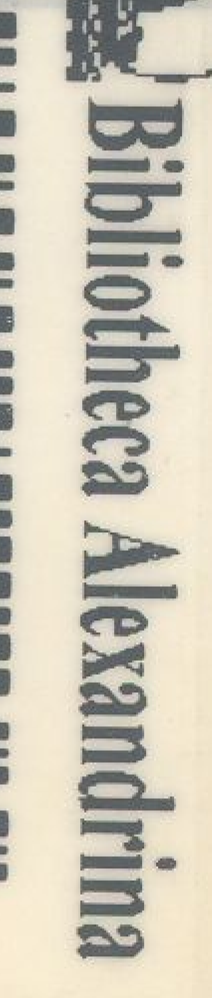
# د. محمود دهموش

# فندق بدون نجوم




قصص قصيرة



# فندق بدون نجوم

قصص قصيرة

د. محمود دهموش

لوحة الغلاف للفنان : سيد البيبانى

الطبعة العربية الأولى : أكتوبر ١٩٩٨

رقم الإيداع : ٩٦٢٧ / ٩٨

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-291-099-3




# السلسلة الأدبية

رئيس المركز

**على عبد الحميد**

مدير المركز

**محمود عبد الحميد**

المشرف العام

على السلسلة الأدبية

**خيرى عبد الجواد**

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : شريف على

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

د. محمود دهموش

# فندق بدون نجوم

قصص قصيرة



# آخر شعاع

* نشرت فى الأهرام عام١٩٩٦
* نشرت فى مجلة أكتوبر عام ١٩٩٨

دخل عليّ في حجرة الكشف بالمستشفى التعليمي - الذى أعمل أستاذاً به - مريض يشى مظهره المتواضع برقة حاله .. ويشير وجهه البشوش إلى لين طباعه .

كان يشكو ألماً في الحنجرة واحتباساً في الصوت يعاوده من حين لآخر.. كنا في أواسط الستينيات من هذا القرن . ولم تكن وسائل الفحص ولا أساليب العلاج قد بلغت ما بلغته الآن من التطور والكفاءة .

فحصت المريض بدقة ومن حولى تلاميذى من الأطباء الشبان يتابعون بأعين شغوفة كل حركة تند عن أصابعى المتمرسة ، ويرهفون السمع لكل سؤال أطرحه على المريض محاولاً أن أصل إلى تشخيص مبدئى لحالته .

استنتجت أنه يعانى على الأرجح من ورم خبيث في الحنجرة .... طلبت منه بعض الفحوص والتحاليل مؤكداً عليه أن يوافينى بالنتائج فى الأسبوع القادم .

فى الموعد المحدد كان عبد الرحمن يدلف إلى حجرة الكشف بملابسه البسيطة ، ووجهه البسّام ، ناولنى التقارير والتحاليل وفى عينيه نظرة رجاء تعاميت عنها ، وكأنه يضرع إلىّ ألا أصدمه بحقيقة تدمر حياته تدميراً ..

نظرت إلى الأوراق والأشعات ، كانت كلها تدعم ظنى وشكى فى إصابته بورم خبيث فاتخذت قراراً بضرورة إجراء جراحة عاجلة إذا كان يريد أن ينقذ حياته .

سرى همس متحمس بين تلاميذى الشبان ، كانت هذه العملية غير مألوفة فى ذلك الزمن وكانت تحتاج إلى مهارة فائقة ، وكثير من الأطباء كان يُحجم عن إجرائها ... وانتشيت بترحيب تلاميذى وإشادتهم مسبقاً بمهارتى وجرأتى ..

ونسينا كلنا المريض الجالس بيننا واجماً مأخوذاً حتى انتبهت إليه وشرعت أؤكد له ضرورة إجراء هذه الجراحة كأمل وحيد لإنقاذ حياته وشبابه ..

فلما استفسر متوجساً عن احتمالات فشلها ، قلت له مطمئناً :

- إن الشئ السلبى الوحيد لهذه العملية هى النسبة العالية لاحتمال أن يفقد صوته تماماً . ولكن أى أهمية لصوته فى مقابل حياته ؟

اتفقت معه على موعد إجراء العملية .. فانصرف وقد علا وجهه قلق وهمّ أفقداه بشاشته وإشراقه .

فى عيادتى الخاصة ليلاً .. وبينما كنت أخلع معطفى الأبيض متأهباً للانصراف إذا بالممرض يطرق باب الحجرة وينبئنى أن هناك شاباً ينتظرنى بالصالة منذ ثلاث ساعات ولم يدفع كشفاً بحجة أنه يريد أن يحدثنى فى أمر خاص .

سمحت له بالدخول فابتدرنى قائلاً :

- مررت عليك صباح اليوم بالمستشفى .... قالوا إنك لم تأت اليوم .

تساءلت باقتضاب :

- خيراً ؟

اندفع يقول :

- اعفنى من العملية ، لدىّ من الأسباب ما يمنعنى من إجرائها .. وأنا على استعداد لأن أتبع أى أسلوب وأى علاج آخر تريده ، وأن أتناول أى حقن أو أدوية تصفها لى .. لكنى لا أستطيع إجراء العملية أبداً .

حاولت إقناعه بالأسباب والمبررات التى تحتم علىّ إجراء الجراحة مؤكداً أنها الأمل الوحيد ، وأن كل الأدوية وأساليب العلاج لن تأتى بنتيجة مرضية إلا بعد إجراء العملية . وما زلت به أشرح له الحالة ومضاعفاتها ما يقرب من ساعة ثم انصرف وقد خيل إلىّ أنه قد اقتنع..

فى اليوم الموعود ذهبت للمستشفى داعياً الله أن تتم العملية بنجاح ، متأهباً - فى خيالى - لتلقى التهانى من تلاميذى ومن زملائى الذين سمعوا أنى سأجرى هذه العملية فأبدوا رغبتهم فى حضورها ومتابعة عملى مما ملأنى زهواً وفخراً ...

هناك فوجئت بأن عبد الرحمن غير موجود فى فراشه بالعنبر . قال جاره إنه قد بات ليلته معهم ولكنهم لم يجدوه فى مكانه حين استيقظوا..

بدأت أشعر بالضيق والحرج خاصة وقد تجمع فى مكتبى عدد من زملائى الأساتذة وفيهم من يكبرنى سناً .. وفى العاشرة كان حرجى قد استحال غضباً عارماً اشتعل فى صدرى فصحت فى الممرضة طالباً منها أن تحضر لى عنوان عبد الرحمن فوراً وقد اعتقدت أنه غافل الممرضات وغادر المستشفى .

فى غمرة ثورتى وشعورى بالحرج مختلطاً برغبة صادقة فى إنقاذ حياة

هذا الشاب ، وجدت نفسى أقود سيارتى مخترقاً شوارع القاهرة من شارع إلى شارع ومن حارة إلى حارة .. وصلت أخيراً إلى حارة مسدودة إتسعت بالكاد لسيارتى فأوقفتها فى نهاية الحارة واتخذت طريقى إلى منزل متهالك من طابقين متجاهلاً جموع الأطفال التى زحفت من الحارة إلى سقف السيارة وفوقها وتحتها يلهون ويعبثون .

طرقت باب شقة قديمة فلم يرد أحد ، عاودت الطرق بانفعال . جاءنى من بعيد صوت خطوات بطيئة ، صبرت دقيقة خلتها دهراً حتى انفرج الباب عن امرأة عجوز تجعد وجهها وبدت كأنها جاوزت المائة عام نفرت شعرات فضية من تحت طرحتها البيضاء النظيفة ...

تساءلت بصوت مرتعش :

- من ؟ ....

- أريد عبد الرحمن شكرى ..

أعادت سؤالها بتوجس :

- من أنت .. ؟

أدركت فجأة أنها كفيفة لا ترى فقلت كالمعتذر :

- أنا طبيبه المعالج ...

- عبد الرحمن غير موجود ...

- متى يعود ؟ ..

- لا أدرى قد يتأخر ... سأخبره أنك سألت عنه .

همّت بإغلاق الباب ، وقفت فى طريقه ... جفلت المرأة بعض الشئ..

تساءلت بقلق :

- ماذا تريد من ابنى ؟ ...

قلت مطمئناً :

- كل خير يا حاجة ، أخبرينى أين أجده ..

- لا أدرى ..

- أين يعمل إذن .. ؟

- فى الحكومة ...

استعنت بكل صبرى وسألتها :

- أى مكان بالحكومة ؟ ..

- لا أدرى .. معه دبلوم تجارة ويعمل بالحكومة ..

قلت :

- اسمحى لى بأن أنتظره حتى يعود .. أريده لأمر بالغ الأهمية ..

بدا فى وجهها التردد والقلق ، ساد الصمت بيننا حتى قطعه صوت عبد الرحمن نفسه ينبعث من داخل الشقة :

- دعيه يدخل يا أمى .. لا فائدة من الجدال .. شرفت بيتنا يا دكتور..

ابتدرته مستعيناً عليه بأمه :

- ابنك يعرض حياته للخطر يا حاجة ..

بدا الذعر على وجه المرأة العجوز وهتفت بلهفة :

- كيف يا ولدى ؟؟؟ ...

قال عبد الرحمن بضيق :

- أفضل أن نتحدث على انفراد يا دكتور .. واجب الضيافة يا حاجة.!

اتخذت العجوز طريقها للمطبخ بسلاسة كدت أنسى معها أنها كفيفة. ما إن اختفت عن أنظارنا حتى ابتدرنى عبد الرحمن :

- استمع إلى جيداً يا دكتور .. أشكر لك اهتمامك بأمرى ، لكن هناك ما ينبغى أن تعرفه ... أمى نحتت فى الصخر لتربينى أنا وأختى بعد أن توفى والدنا ونحن صغار ، عملت خادمة فى عشرات البيوت ، كانت تعود بعد يوم مجهد لترعانا وتدبر أمر طعامنا وشرابنا .. وكانت تمضى شطراً من الليل على ضوء خافت توفيراً لاستهلاك الكهرباء .. تخيط وتحيك ما انقطع وانفتق من الملابس التى يقدمها لنا الجيران وترتق ما تفتق منها حتى كلّ بصرها ، وانطفأ آخر شعاع منه بعد أن زوجت أختى وعملت أنا ، فحق لها أن تستريح فى بيتها ونقوم نحن على خدمتها ورعايتها ..

صمت لحظات قبل أن يستأنف :

- أما أختى فقد سافرت إلى بلد عربى مع زوجها ..

لم يعد هناك من يرعى أمى سواى .. أنت تقول إن هذه العملية ستمنحنى الحياة فى مقابل صوتى ....

صوتى يا دكتور هو الصلة الوحيدة بين أمى والدنيا .. فإن فقدته فمن يرشدها ومن يسليها ..؟ من يقص عليها أخبار الدنيا ؟

قاطعته :

- ألم تفكر فيما ستفعله أمك لو أدى إهمالك فى العلاج إلى النتيجة المحتمة .. وهى الموت إن آجلاً أو عاجلاً .. ؟

صمت دقيقة ثم أجاب بصوت خفيض :

- الأعمار بيد الله يا دكتور .. وحتى يأتى هذا اليوم دع أمى تنعم بصحبة طيبة ..

انقطع الحديث لدى دخول أمه بصينية عليها أكواب نظيفة وإبريق شاى. وضعت الصينية على مائدة في وسط الصالة وقالت بصوت مبحوح:

- تفضل يا ولدى ..

ثم اتجهت بتؤدة إلى مقعد جانبى وتحسست مكانها قبل أن تجلس..

قالت :

- اعذرنى يا دكتور .. سمعت حديثكما وأنا فى المطبخ ..

التفتُ إليها وكلى إشفاق أن تفقد ابنها الوحيد .. قلت :

- انصحى ابنك يا حاجة أن يجرى العملية ، إنها الأمل الوحيد له فى الحياة .

إنسابت دموعها بهدوء على وجهها المجعد وهمست بصوت مشروخ :

- كذبت علىّ يا عبد الرحمن ...

رد محرجاً :

- لأول مرة يا أمى .. لأنى خفت عليك . ولم أشأ أن أزعجك ..

هتفت به :

- ألم تشفق عليّ من لوعتي عليك ؟

انتهـزت فرصـة تعاطف أمه مع رأيى ، فـرحت أوضح لها حـرج الحالة ومضـار الإهمال فى العـلاج وأناشد ابنهـا ألا يهمل ولو من أجل أمـه التى تحتاجـه . تحول كل غضبى عليه حين تخلف عن الحـضور وأحرجنى وسط زمـلائى ، إلى رحـمـة به بعـد أن رأيت بره بأمـه وإشـفـاقـاً على هذه الأم المكافحة من أن تفقد ولدها .

لـم يستجب ... يئست من إقناعه ، رأيت فى صـمته دليلاً على رفضه.. هممت بالانصراف .. قالت أمه من بين دموعها بصوت يقطر حناناً :

- يا ولدى .. عندما كنت صغيراً كنت أفهمك من رنة بكائك . وعندما كنت تمرض كنت أنام إلى جوارك وأمر بيـدى على رأسك فأعرف دون أن أفتح عينى إن كنت قد تحسنت أم لا ...

اختنق صوتها بالدموع ، صمتت لحظة ثم أضافت :

- يا ولدى .. عندمـا كنت رضيـعاً كنت تسـتيقظ كـثيـراً أثناء الليل .. فكنت أضمك لصـدرى فى الظلام الدامس فأعرف من حركـة جسمك إن كنت جائعاً أوعطـشان أو متعبـاً .. دون أن أراك ودون أن تقول لفظاً واحداً مفهـوماً .. ولم أشك يومـاً منك .. بل كنت أجـد فى وجودك بقـربى أمنا وأنساً .. فكـيف يطاوعك قلبك أيها الجـاحد أن تحرمـنى دفء قربك .. .. وبماذا ينفعنى صوتك لو غبت أنت عنى ؟؟؟

لم أتمنّ فى حيـاتـى النجاة لمريض كـمـا تمنيتـهـا لعبـد الرحـمن ، كنت

أجرى له الجراحة وليس فى ذهنى شئ عن الفخر والمجد اللذين ينتظراننى لو نجحت العملية ، ولا كنت عابئاً بنظرات تلاميذى الشبان المستطلعة ولا عيون زملائى المتفحصة ، كل ما كان يشغل ذهنى هو أمه العجوز التى تنتظر شفاءه بصبر بالغ حتى لو كان ثمن الشفاء أن تحرم من صوته .. الشئ الوحيد الذى يصلها بالدنيا بأسرها .

كان عبد الرحمن من النسبة الضئيلة التى لم تفقد صوتها بهذه العملية.. لقد تغير صوته كثيراً . كان يخرج من فمه خشناً أجش ينكره من يسمعه للمرة الأولى ....

لكن هذا الصوت المنكر كان أعذب من كل لحن سمعته أمه الطيبة ..

# السم .. والعسل

* فائزة بجائزة نادى القصة عام ١٩٩٦
* نشرت فى الأهرام عام ١٩٩٧

عرفت عدنان كواحد من ثلاثة طلاب كنت أشاركهم شقة صغيرة على مقربة من الجامعة ، ولم يكن بيننا سابق معرفة بل جمعتنا المصادفة فقادتنا إلى سمسار واحد دلنا على هذه الشقة ...

كنت في كلية الطب وعدنان في التجارة . أما الاثنان الآخران فكان أحدهما طالباً بالهندسة والثاني في عامه الأخير بكلية الآداب . في البداية شاركت طالب الآداب إحدى حجرتي الشقة ولم أرتح معه لكن حيائي منعني من التصريح أو التلميح برغبتي في مشاركة عدنان أو زميلنا الرابع الحجرة .

بعد شهرين حدثت مشادة بين عدنان وزميله وكان عدنان رغم طيبته سريع الاستثارة ، متطرفاً في غضبه ، وكنت أرجع ذلك إلى جذوره الصعيدية - فقد كان قادماً من المنيا - فأقسم الا يبيت معنا في الشقة وأن يتوجه من فوره إلى قريب له كان يقيم في أطراف المدينة فيمكث معه ريثما يدبر لنفسه مكاناً آخر ، حاولنا أنا وزميلي طالب الآداب أن نقنعه بالبقاء وألحفنا عليه بالرجاء ، ولم نزل به حتى رضي أن يبقى حين عرض عليه طالب الآداب أن يحله محله .

شاركني عدنان حجرتي بصفة مؤقتة في البداية ولكن الإقامة المؤقتة لم تلبث أن تحولت إلى زمالة دائمة ، قنع أربعتنا بالوضع الجديد. وهكذا قدر

لزمالتى بعدنان أن تحولها العشرة وتوافق الطباع إلى صداقة قوية لم يفصم عراها الزمن ولا اتخاذ كل منا لطريق مهنى مختلف ..

كان عدنان الابن الوحيد وسط خمس بنات لأب صعيدى بدأ عمله كتاجر صغير ثم ازدهر ازدهاراً كبيراً قل أن يحظى بمثله تاجر عصامى يبنى نفسه بعيداً عن العاصمة ، لم يكن لطموح الأب حدود كما لم يكن له ولد غير عدنان فأصر أن يكمل عدنان تعليمه وأن يتخرج فى كلية التجارة ليكمل مسيرة أبيه فى مجال التجارة على أساس علمى ... صحيح أن الأب كان قد بنى نفسه مدفوعاً بحس تجارى فطرى لم يصقله التعليم ولا دعمته الدراسة ، لكنه كان ذا عقل راجح ، وخبرة عريضة ، وحرص منذ البداية أن يزرع فى نفس عدنان نفس المبادئ التى يعتنقها ، فشب الصبى ونما وفى داخله صعيدى معتز بنفسه ، فخور بإنجازاته ، مفرط فى كرمه ، متطرف فى غضبه .. ذو قلب كبير... وعناد أكبر .

عثرت يوماً بأوراقى على صورة شابة جميلة ، لم يكن بالحجرة سوى منضدة واحدة نستذكر عليها دروسنا سوياً ونضع عليها كتبنا وأوراقنا... خلف الصورة لمحت إهداء رقيقاً يشى بعاطفة جياشة تجمع عدنان بصاحبة الصورة التى ذيلت إهداءها باسم «صفاء» ... وابتسمت بينى وبين نفسى، أيعرف صديقى الصعيدى الجاد الحب حقاً ؟ منذ متى يا ترى ؟ وكيف أخفى عنى قصته تلك رغم مرور عامين على صداقتنا ؟ ...

فى مساء ذلك اليوم لدى عودته من زيارته الشهرية لأهله واجهته بالصورة فتضرج وجهه خجلاً ثم صارحنى بأن علاقته بصفاء تعود لعام مضى ، وأنها زميلته فى الكلية وتصغره بعام واحد وتوالت اعترافاته

تكشف لى عن حب طاغ يكنه لها ، عجبت لذلك الجنوبى الذى يغلف قلبه المرهف مظهر صخرى .

ومضت بنا الشهور والسنوات فشققت طريقى فى الحياة وتخصصت فى أمراض النساء والتوليد ، وتزوجت ابنة خالتى وأنجبت منها ولداً وبنتاً ، وتخرج عدنان فى كليته وواصل مشوار والده فتوسع فى تجارته توسعاً عظيماً ، وصارت له فروع فى القاهرة والإسكندرية ، وانشغل بعمله كما انشغلت بعملى فتباعدت الأوقات بين اتصالاتنا وتباعدت أكثر بين لقاءاتنا، لكن صداقتنا ظلتّ قوية رغم كل شئ ، وظلت للقاءاتنا نفس المتعة ولأحاديثنا نفس النكهة القديمة المعبقة بذكريات شبابنا الباكر ...

يوم زواجه من صفاء رأيت صديقى ذا المظهر الجاد والقلب المرهف تكاد مشاعره تغلبه على أمره فيبكى من السعادة غير أنه تحكم فى نفسه بإرادته الفولاذية ، واختزل فرحته الطاغية فى ابتسامة صغيرة رسمها على شفتيه ، وحين ملت أقبله مهنئاً لمحت دموع الفرحة مسجونة فى عينيه ..

كانت ثلاث سنوات قد مرت على زواج عدنان وصفاء حين فوجئت بهما أمامى فى عيادتى الخاصة ، كان كلاهما بادى الحزن والاضطراب..

- "لم ننجب حتى الآن .... وقد عرضت صفاء على أكثر من طبيب فلم نظفر من أحدهم بأمل نتشبث به .. فجئت بصفاء إليك لعل الله يجعل شفاءها على يديك "....

كتمت الأسى الذى شعرت به تجاه صديقى ... كنت أعلم كم كان يحلم بإنجاب ولد يحمل اسمه ويرث عنه تجارته وتجارة والده ... وآملت

أن ييسر لى الـله علاج زوجـتـه .. فحصت صـفاء جيـداً واطلعت على التحـاليل وصور المـوجات فوق الصوتية التى طلبهـا كبار الأطبـاء الذين عرضـها عليهم قـبلى ... كانت حالة صفـاء حالة عقم لا يرجى شـفاؤه .. صارحتـهما بالحقـيقة بكلمات حـرصت كل الحرص على انتقائهـا وذيلتها بالإشارة إلى نعم الله الأخرى عليهمـا ، ورجوت منهما أن يقنعا بالحب .. فـالحب الذى يربط بين قلبيـهمـا نعـمة يحسـدهمـا عليها مئـات الأزواج الآخرين ممن منحهم الله الذرية وحرمهم الوفاق ...

لما فرغت من الحديث ساد الصمت برهة ثم رفعت صفاء وجهها العذب إلىّ وقالت بحرارة :

- "إننى راضيـة بما قـسـمـه لى الله .. وعـدنان أبى وزوجى وولدى .. ولولا الحب الذى يجمعنا لما طابت لى الحياة" ...

تطلعت إلى عـدنان الذى ركـز عينـيه فى أرض الـحـجـرة منتظراً منه أن يقول شيئاً .. أى شئ ولو مجاملة لزوجته وحبيبته المبتلاة ... لكنه لم ينبس فناديته برفق :

- "عدنان " ؟ ...

فانتزع نفسه من خواطره ونهض واقفاً وهو يتمتم :

- "ليفعل الله ما فيه الخير " ...

انقطعت عنى أخبـار عدنان لشـهـور ... ثم اتصلت به فـعلمت منه أن أعمـاله فى ازدهار وأنه لم ييأس من الـتماس العـلاج لحبـيبة عـمره . فـهو يسافـر بها إلى أوروبا وأمريكا ويعـرضها على أشـهر الأطباء المتخـصصين

فى عـلاج العقـم ... وأنه يأمل أن تنجـب له الولد الذى تمناه عمـره كله ... دعوت له مخلصاً أن ينال ما يتمنى ، ولم أشأ أن أحطم أمله الدفين .

مضت السنوات والحال على ما هو عليـه ، مع فارق جديد إضافة الزمن لشخصية عدنان فأحال جديته صرامة ، وعزيمته القوية صلابة وعناداً يدفعانه للتمسك برأيه ولو كان على خطأ ، وكسا وجـهه بشئ من القسوة لم أعهده فى رفيق شبابى ...

وذات يوم فوجـئت به يدلف إلى العيادة ومن خلفـه شابة صغـيرة ذات جمال ملحوظ قدمها لى وصوته يشى بارتباكه :

- "حنان ... زوجتى" ! ...

حـدقت فيـه لحظة مندهشـاً ... لم يدر بخلدى يومـاً أن يفـرق شئ بين عـدنان وصفـاء . ولم أتصـور قط - رغم علمى برغـبة عـدنان القـوية فى الإنجاب - أن يقدم على الزواج بامرأة أخرى غير حبيبة عمره ...

ابتلعت دهشتى وتمتمت وأنا أقسر نفسى على الابتسام :

- "مـبـارك ... مـبـارك .. أهكذا يا عـدنان تـتـزوج دون أن تخـبـر صديقك"؟...

- "حدث كل شئ بسرعة " ...

تساءلت فى رغبة منى لإشباع فضولى :

- "عسى ألا تكون تهنئتى قد تأخرت كثيراً " ...

رد عدنان متجهماً :

- "تزوجنا منذ عام ونصف" ...

ثم أردف بعد لحظة صمت :

- "ولم ننجب حتى الآن ... فجئتك بحنان لفحصها لعل الله يجعل شفاءها على يديك" ....

سبحان الله ...

مرة أخرى يا صديقى ؟؟ ما أسوأ حظك ... وفحصت زوجته وكلى أمل ألا تكون حالتها ميئوساً منها مثل حالة صفاء ... كثير على عدنان أن يخسر حبيبته ويطعنها فى صميم قلبها ثم يتزوج من أخرى بها نفس المشكلة ..

ولم أجد بزوجته عيباً واضحاً فطلبت منها أن تجرى بعض الفحوصات وودعتهما مطمئناً :

- على كل حال عام ونصف من الزواج لا تعتبر مدة طويلة ....

بعد أيام عادا إلىّ بكل التحاليل التى طلبتها .. فحصتها بأناة قبل أن أرفع وجهاً باسماً إلى زوجته وأقول مشجعاً :

- "لا شئ بك يا سيدتى ..."

ابتسمت حنان بثقة من كان على يقين أن لا شئ يمكن أن يعيبها بينما هتف صديقى بنفاد صبر :

- "فلماذا إذن لم تحمل يا مدحت ؟؟ لماذا ؟" ..

التفتّ إليه أهم بأن أجيبه بأن كل شئ له أوان وأن إرادة الله هى المعوّل

الأساسي في تلك الأمور ، وإذا بخاطر مزعج يراودني حين وقعت عيناي على وجهه الناضح بالرجولة والفتوة ، فاستأذنت زوجته لدقائق واصطحبته إلى الحجرة الملاصقة لمكتبي وهمست متوجساً :

- "عدنان .. هل فكرت في إجراء بعض التحاليل لتطمئن بها على نفسك؟"

رجع برأسه إلى الوراء وارتفع حاجباه دهشة وهتف باستنكار وكأنني قد طعنته في رجولته :

- "ماذا تقول يا مدحت" ؟؟ .....

قلت أخفف من وقع حديثي :

- "مجرد إجراء روتيني" ...

هتف غاضباً :

- "هذا سخف لم أسمع بمثله قط" ...

- "لن يضيرك شئ" ....

- فرمقني شزراً ، وولى عني غاضباً ، وعاد إلى حجرة المكتب حيث جذب زوجته من ذراعها وانصرف وهو يقول متهكماً :

- "أشكرك لتعاونك على أية حال" ....

بعد ثلاثة أشهر من هذا اللقاء جاءني عدنان في العيادة ... انتظر حتى انصرفت آخر مريضاتي ثم دخل بعد أن أنبأتني الممرضة بوجوده في صالة الانتظار ....

بدا شاحباً وهزيلاً ... وعلى شفتيه تحجرت ابتسامة صفراء ...

- جئت أعتذر لك عما بدر مني في لقائنا الأخير ...

فنهضت باشاً أرحب به وقلت له وأنا أربت على كتفه :

- "لا عليك يا صديقي ... طمئني .. ما أخبار المدام ؟" ...

- "طلقتها" ! ...

قلت معاتباً :

- "تعجلت يا عدنان ... إنها قادرة على الإنجاب .. وربما لو ... " ..

قاطعني :

- "هي التي طلبت الطلاق" ...

أضاف وحزن الدنيا كله في صوته :

- "أنا عاجز تماماً عن الإنجاب ... لم يكن في قلبها لي رصيد من الحب يعينها على مواصلة مشوار الحياة معي بذلك الثمن الباهظ ..."

تراءت لي صورة صفاء ، وهممت أن أذكره بأنه قد فعل نفس الشئ مع التي أحبته بصدق وأحبها ... فلم يرع للحب حقه ... وطعنها في قلبها فباع السعادة التي كانت بين يديه من أجل وهم كان يخايله ..

قلت مواسياً :

- "ذلك يعيد الأمور إلى نصابها ... فأنت الشريك الأنسب لحبيبتك القديمة ... أسرع إليها ومد لها يدك وأنا واثق أنها ستغفر وتسامح مستعينة على ذلك بقلبها الطيب وحبها العظيم لك" ..

ابتسم نفس الابتسامة الصفراء وتطلع إلىّ بعينين سبح فيهما الدمع:

- "لقد تزوجت صفاء من أرمل له أولاد بعد أن علمت بزواجى من حنان" ..

ثم وقف فخيل لى أن قامته الشامخة قد انحنت ، تمتم مودعاً :

- "لم آت ملتمساً منك المواساة .. ولكننى شعرت أنه من حقك أن تعرف بقية القصة الحزينة التى شهدت بدايتها ، فحق لك أن تعرف نهايتها"...

وحين استدار متوجهاً ناحية الباب رفع يمناه إلى وجهه فخيل إلى أنه يمسح دمعة عرفت أخيراً كيف تنساب فوق وجهه الصارم .

# مطلوب داية

علـى رصـيف المحطة جلست على دكـة خشـبـية أنتظر وصـول القطار الذى سيـحملنى إلى الإسكندرية كمـا ينتظر العاشق محـبوبته . كـان البرد زمهريـرا ولكن السعادة كانت تبـعث فى جسدى دفئاً ، وتنشر فى أعطافى حرارة ...

أخيراً انتهت سنة العذاب ..

الواحات تأديب وتهذيب وإصلاح ..

اثنا عشـر شهراً قـضيـتها منفـياً فى الواحات .. يـا له من عذاب ... من القاهرة رأسـاً إلى الواحات حـيث الجنس البشـرى الوحيـد هو الذكور ... ثلاثمـائة وخمسـة وستـون يوماً لم تقع عـينى خلالـها على امـرأة ... امرأة جـديرة بهذه الصـفة .. لا نسـاء البدو الـلاتى لا تبدو منهن سـوى العيـون وخـلاف ذلك مطمـوس المعـالم تحـت جلبـاب من فـوقـه جلبـاب وثوب وطرحة، ومن تحـته سراويل كثيـرة ثم برقع سميك يعدو علـى آخر وأجمل معلم من معالم الأنوثة ... الشفاه ..

عـام كامل لـم أر فيـه سـوى شفـاه تعلوها شـوارب ... أفلح مـجلس التأديب فـى اختيـار أبشع عقـاب ليجازينى به ... لأتوب بـعده عن .. عن النساء ... ؟؟ حاشا وكلا ... بل لأتوب عن سـوء اختيارى لمن أغازلها من النساء ...

سامحك الله يا نشوى ...

أكل هذه المعاناة أدفعها ثمناً لكلمات مديح - بريئة والله - همست لك بها تعبيراً عن تقديرى وإعجابى العارم بجمال شفتيك ؟ وهل ذنبى أنك قد ملكت أعذب وأجمل شفاه رأيتها خلال أسبوع ؟

لحظى الأغبر اكتشفت حين استدعونى للتحقيق أنك ابنة مدير المستشفى... لم يعد هناك مجال لتكذيب ادعائك ... ولا عاد هناك أمل فى التملص من العقاب ..

-"لابد أنك مجنون لتأتى إلى المحطة قبل موعد القطار بأكثر من ساعتين فى هذا البرد القارس" .

التفت إلى "بكرى" باسماً ... إنه متوسط الطول ممتلئ دون إفراط ... متلفع ببالطو ثقيل ، ويخفى نصف وجهه بكوفية صوفية أحكم لفها حول رقبته وأذنيه ... لما اكتفيت بالابتسام قال متصنعاً الغضب :

- "وأنا مجنون أكثر منك لأننى رضيت بمرافقتك ..."

الحسنة الوحيدة التى خرجت بها من منفاى هى "بكرى" ... نعم الرجل والصديق .... سبحان الذى ربط بين قلبينا بخيوط المودة ونحن على طرفى نقيض ... أنا أعشق النساء واللهو وأذوب أمام الشفاه الجميلة والعيون الساحرة ... وهو يعتبر النساء شراً مستطيراً ... ويرى أنه من نكد الطالع أن لا غنى لنا عنهن ... لذا فخير ما يفعله المرء بحياته أن يتجنبهن ريثما تسمح الظروف والإمكانات له بالزواج فيختار من بينهن من تتميز بالوداعة ... والنصيب المتواضع من الجمال فلا تتفاخر عليه بجمالها ولا

ترهقه عسراً بطلباتهـا ... وتقنع بما أنعم الله به عليها ... وعلى النقيض فقد كنت أومن أن شر مـا يفعله المرء بنفســه هو التعجيل بالزواج . وأن الحـياة أجمل من أن نكتفى فيها بتجربة يـتيمة ، وأكرم من أن تحرمنا من نسائها فى مـقابل امـرأة واحدة بالغـة مهـما بـلغت من الجمـال والجاذبيـة وفى حين اعـتـبرت أنا الواحـات منفى وبؤرة تـعذيب. علـمت من "بكرى" أنه هو الذى سعى منذ بداية تكليفـه ليعمل بها نأياً بنفســه عن الفتن فمن عجب حقـاً أن صداقـة وطيدة جمـعتنا حـتى لتكاد سعـادتى بالعودة إلى أحـضان المدينة الزاخرة بالحياة والحركة والجمال يشوبها الحزن والضيق

- "سـأفتـقـدك يا بكرى ... والله أنه ليـحـزننى فـراقك وأتمنى لو أظل معك"

- "يا سيدى لا داعى للحزن ... الفرصة لم تضع بعد "

قال قوله وهو يحمل إحدى حقائبى ويستدير عائداً فصحت به .

- "إلى أين تذهب يا مجنون ؟"

قال :

- "لتعلم أنك كـاذب ولا تعنى كلمة مما تقول . . إن الفرحـة تكاد تقفز من عينيك ولكنك مدمن كـذب ... لا يجدى معك ألف مجلس تأديب.. ولا ألف سنة تقـضيهـا فى الواحات . أنت ... أنت حزين لـفراقى؟؟ والله إننى لو كنت أباك لبعتنى لقاء نظرة رضا من عيني فاتنة..."

قهقهت ضاحكاً وعدت أؤكد عليه

- "لكنك وعـدتنى بالزيارة فى الإسكنـدرية عنوان شقـة خـالى التى سأقيم بها معك فلا تتأخر عن زيارتى"

- "لن تراني قبل ستة أشهر .. لأنك ستكون خلالها كالمفجوع لجنس الحريم اللعين .. لن تترك سمراء ولا بيضاء .. ولا رشيقة ولا سمينة ولا طويلة ولاقصيرة .. ولا .. ولا.." .....

- "حسبك ... حسبك" .....

- "يا زئر النساء" .....

***

على رتابة صوت عجلات القطار أغمضت عيني مسترخياً ، مسلماً قيادي لأعذب أحلام اليقظة ، فسرعان ماهمت في ذلك العالم الممتع في منتصف الطريق بين اليقظة والمنام ...

متعك الله يا خالي بالصحة والسعادة .....

لولا أريحيته ... وسماحه لي بالإقامة في شقته لأنفقت ثلاثة أرباع مرتبي على الأقل إيجاراً لشقة ملائمة ...

فلأعترف أيضاً بأنني حسن الحظ لأن خالي قد عاد إلى عمله في الكويت ... بعد انقطاع دام بضعة أشهر عقب حرب الخليج ...

كان بلا زوجة ولا أبناء فلا عجب أن يشملني برعايته ويغمرني بعطفه.. ما زلت أذكر شقته الجميلة لا يفصلها عن البحر سوى شارعين.. رفيعة الذوق قليلة الأثاث تعطي إيحاء بالاتساع والاسترخاء... لن أنسى له كذلك فضله حين سعى لنقلي إلى الإسكندرية عقب انتهاء سنة "النفي" بدلاً من نقلي من الواحات إلى المستشفى العام بمنوف ... فبنات الإسكندرية سيكن بلا شك أكثر تحرراً من بنات منوف ، وحسبي رؤيتهن

وهن يمرحن على الشاطئ فى لباس البحر حين يتوهج الصيف بلهيبه . صحيح أن أربعة أشهر لا تزال تفصل بينى وبين مطلع الصيف، لكننى على أية حال سأمضي على الأقل شهرين منها فى ترتيب أمور حياتى فى مستقرى الجديد .. وإيلاف الطرق والأماكن الجديرة بالتردد عليها ...

مؤكد أن هذا لم يخطر ببال خالى وهو يسعى فى أمر نقلى إلى الإسكندرية ظناً منه أنه إنما يقدم لى فرصة أفضل فى التعليم والعمل .

ويبدو أن الأحلام تحالفت مع رتابة صوت القطار فالتقت بى فى وادى النوم السحيق ... فلم أنتبه إلا بعد فترة طويلة .... فركت عينى لأنفض عنهما غبار النوم فما راعنى إلا رؤيتى لوجه ما أجمله.. وشفاه ما أبدعها، أغمضت عينى لأطبق أهدابي على بقايا هذا الحلم الجميل خشية أن يولى عنى مدبراً.. إلا أن جفنىّ أطبقا على سواد... خسارة إن هرب منى هذا الطيف الفاتن... تثاءبت بتكاسل وأنا أفتح عينى ببطء ...

***

رباه ماذا أرى ؟

إذن فتلك الحسناء الباهرة لم تكن طيفاً ولىّ هارباً ... وإنما هى امرأة من دم ولحم ! ......

ترى متى صعدت إلى القطار ؟ مؤكد أنه قد توقف فى إحدى محطاته أثناء إغفاءتى فركبت هذه الفاتنة واختارت مجلسها فى مواجهتى لتهب بقية رحلتى مذاقاً رائعاً ...

كانت تتصفح مجلة بلا مبالاة .... تصفحتها بتمعن ....

.... امرأة لا يتجاوز عمرها الثلاثين عاماً ... ذات سمرة دافئة ، وشعر حالك مرسل ... رشيقة القد ... ناهدة الصدر ، تتحلى بقرط ذهبي طويل يكاد يمس كتفيها ، وتصبغ شفتيها المكتنزتين بلون أحمر فاقع .

عزمت أن أعاود نشاطي في اللهو شجعني مظهرها المتحرر كما وشي بذلك قرطها المفرط الطول وطلاء شفتيها ، وثوبها المنحسر عن ركبتيها ..

لما رفعت عينيها إليّ عرضا وهي تقلب في مجلتها ثبتّ نظرتي عليها وحملتها رسالة إعجاب ... رسمت شبح ابتسامة على شفتي إيماء إلى رغبتي في التعارف فلم تجفل من نظرتي ، ولا غضبت من طيف ابتسامتي بل سلطت عليّ عينين عسليتين واسعتين .. .

وردت على ابتسامتي المترددة بابتسامة واسعة مرحبة ، وما إن ألقيت عليها بالتحية حتى ألقت بالمجلة إلى جانبها بإهمال فسقطت على أرضية القطار

***

يممت وجهي صوب بيت خالي مستقلاً سيارة أجرة ، ممتلئ الأعطاف بسعادة غامرة محملاً من حسناء القطار "سوسن" بوعد أن تتصل بي بعد الظهر قبل أن توافيني غداً في تمام السابعة مساء

ستأتي إليّ باعتبارها مريضة تزور طبيباً في عيادته الخاصة بعد أن انتهزت شكواها من صداع يلمّ بها بين الحين والآخر ، وعرضت عليها أن أفحصها في عيادتي مؤكد أنها ستدرك أنني قد كذبت عليها بادعائي

أن شـقة خـالى هى عـيادتى الخـاصة بمجـرد أن تخطو خطوة واحـدة داخل الشقة ، ولكن المهم أن أجعلهـا تأتى إلىّ فى المقام الأول ... وبعدها سنرى إن كـانت فـراسـتى قـد صدقـت فى مـدى تحررها ... غـيـر أنهـا وعـدت بالحضور.

سأرسل لإحضار طـعام فاخر وشراب ... مرحى هذه هى الحـياة حقاً.. أين أنت يا بكرى لتـرى بعـينيك صديقك وهو يـصول ويجـول فى ساحـة الهوى .. أين أنـت لترانى وقد أوقـعت بامرأة ولم يمض علـى وجودى فى مدينة الإسكندرية يوم واحد..

وقفت بى السيـارة أمام مدخل العمارة وتعـاون البواب مع السائق على إنزال الحقائب .

وحـرصت على أن أكـرم البـواب ... لم تكد تمضى سـاعة حـتى كـان البواب يطرق بابى عـارضاً خدماته .. فـعهدت إليه بنفض الغـبار عن قطع الأثاث وكنس الأرض ريثما يبحث لى عمن يـقوم بمهمة التنظيف ولو يوماً واحداً كل أسبوع .

شمـرّ عن أكمامه بهـمة ممنياً نفسـه بأجر كبيـر بعد أن رفع عقيـرته آمراً زوجته أن تقوم عنه مؤقتاً بمهمة حراسة البوابة ..

وكـان "عم عرابى" ثرثاراً فلم يكـف عن الحديث لحظة ، سـارداً لى كل أخبـار العمـارة وسكانها . وكنـت أستمع إليـه بنصف انتباه ، حريـصاً فى الوقت نفسـه على أن يبدو على وجهى الاهتمـام بكل ما يقول لأكسبه إلى صفى فلا يعود يشكل عقبة أمام مغامراتى ولا يضايق زائراتى فى صعودهن وهبوطهن ....

من اجل ذلك أيضاً اضطررت أن أستمع لمدة ربع ساعة إلى تاريخ مرضه منذ ولدته أمه وحتى يومنا هذا ...

كان واضحاً أنه فى حاجة إلى تحاليل كثيرة وقياس لضغط الدم ... إلا أن الإرهاق كان قد بدأ يتسلل إلىّ بعد عناء السفر وترتيب البيت ، فأردت أن أتخلص من إزعاج "عرابى" لأنال قسطاً من الراحة فى أول ليلة لى فى بيت خالى ... وتذكرت أنه يوجد فى حقيبتى الصغيرة مسكن قوى فأحضرته وناولته إياه على وعد منى باصطحابه معى إلى المستشفى الذى سأتسلم عملى فيه غداً بعد أن أستقر به يومين أو ثلاثة... فخرج الرجل راضياً .. قرير العين ... معبراً عن سعادته بأننى طبيب ... وأننى قد أقمت بشقة خالى المدرس الذى لم يكن عم عرابى يفيد منه شيئاً سوى الأوامر والتوجيهات ...

ظهر اليوم التالى أمطرت السماء مطراً خفيفاً فتوجست خيفة خشية أن يزداد انهماره غزارة فيعوق سوسن عن المجئ ..

بيد أن اتصالاً هاتفياً منها حمل لى وعداً بالحضور فناديت عرابى وأخبرته أن خطيبتى ستأتى لزيارتى مساء اليوم ، ونفحته مبلغاً آخر من المال نظر إليه هنيهة ثم ابتسم بغموض وقال ونظرة ماكرة تلمع فى عينيه:

- "أنا تحت أمر سعادتك وتحت أمر الهانم خطيبتك يا دكتور" ...

وشت نظرته أنه قد فهمنى ... وحملت إلىّ ابتسامته بشرى أن المقام سيطيب لى كثيراً فى الإسكندرية ..

وصدقت الجميلة فى وعدها ... فلم تكد الساعة تجاوز السابعة بدقائق

حتى دقت فاتنتى جرس الباب بالرغم من المطر وبرد يناير القارس ، وانفرج الباب عنها يصحبها عم عرابى قائلاً وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :

- "خطيبة حضرتك وصلت .. تحت أمرك يا دكتور" !

عندما خلعت سوسن معطفها الرمادى ، بدت فى هيئة غير تلك التى رأيتها عليها بالأمس فى القطار ..

كانت ترتدى ملابس وقورة محتشمة ، وقد عقصت شعرها الفاحم خلف رأسها بأناقة . أما زينتها فكانت قليلة واستعاضت عن الأصباغ الفاقعة بظلال خفيفة فبدت أجمل مما رأيتها بالأمس . جلست بثقة ورشاقة على الأريكة وجالت بعينيها فى المكان ثم قالت بخبث :

- "عيادة جميلة" ...

كذبت موضحاً :

- "إنها شقتى الخاصة ولكننى بصدد تحويلها إلى عيادة قريباً" .

رمقتنى غير مصدقة وسألتنى بمكر :

- "أحقاً ما تقول أم أنها قصة ملفقة ؟"

رفعت يدى متنصلاً من التهمة وهتفت بحرارة :

- "حاشاى أن أكذب عليك" .

ندّت عنها حركة تنذر بالقيام وقالت :

- "أظن أنه من الأوفق أن أنصرف على وعد أن أعود حين تفتح عيادتك"

أشرت بيدى إلى النافذة وهتفت معترضاً :

- ألا تنتظرين حتى يتوقف المطر ؟"

لم تُبد ممانعة بل اعتدلت فى جلستها ونظلعت إلىّ باسمة فاتخذت مجلسى قريباً منها ورنوت إليها بشغف .. ابتسمت ابتسامة عذبة وقالت بصوت رخيم :

- "أرجوك لا تسيء فهمى" .

وبهتّ لحظة ثم انفجرت ضاحكاً رغماً عنى وقلت مجاملاً :

- "لا يمكن أن أسيء فهم مثل هذا الجمال" .

استطردتْ :

- إن ما شجعنى على تلبية دعوتك أننى لمست فيك طيبة القلب ونبل الأخلاق" .

شكرت لها مديحها ، وهممت أن أحيد بالحديث إلى جهة أخرى تصل بنا فى النهاية إلى الهدف المنشود ، بيد أنها أسرعت تقول :

- "إننى أعانى فعلاً من صداع شديد يهاجمنى كل فترة فيحيل حياتى جحيماً .. ولقد عرضت نفسى على أكثر من طبيب فأجمعوا على أن صداعى نفسى لأننى وحيدة .. بلا صديق" ..

ازددت اقتراباً منها وهمست بصوت دافئ :

"اعتبرينى صديقك ... صديقك المخلص" .

هتفت بفرحة :

- "أحقاً ما تقول ؟ يا ليتنى أجد قلباً حنوناً يتسع لشكواى" .

- "قلبى .. ووقتى تحت أمرك متى شئت .. والآن ماذا تشربين ؟"

- "كنت آمل أن نتحدث قليلاً قبل الطعام والشراب" .

تململت فى جلستى وقلت مستسلماً :

- "تفضلى" ...

رمقتنى بدلال وتساءلت :

- ما رأيك ؟ هل أبدو جميلة فى عينيك ؟"

اقتربت منها وهمست :

- "أنت أجمل امرأة وقعت عليها عيناى" .

- "فبماذا تصف من يفرّط فى امرأة مثلى ؟"

قلت بإخلاص :

- "إنه أحمق .. ولا شك أنه لا يستحق النعمة التى أنعم بها الله عليه".

- "لهذا أرفض العودة إليه" .

- "العودة لمن ؟؟"

- "لطليقى" !

سألتها بارتياح خفى :

- "أأنت مطلقة ؟"

علا وجهها عبوس خفيف وتأوهت معترضة :

- "أرجو ألا يكون لتلك الصفة مرادفاً آخر فى ذهنك" .

ابتسمت ولم أحر جواباً فأردفت :

- "لا تجعلنى أندم على حضورى إليك هنا" ..

هززت رأسى سلباً وابتسامتى تزداد اتساعاً وغباء .... وددت لو أسألها إذن عن معنى حضورها إلى شقة أعزب لا تعرفه ، ولكنى ابتلعت سؤالى حين مدت يداً ناعمة وربتت بها على خدى وقالت بحنان مفاجئ :

- "لماذا تبدو حزيناً ؟" .

شئ ما صرخ بى أنها ليست على هذه الدرجة التى تدعيها من السذاجة، وأننى على ما يبدو قد وقعت فى حبائلها بدلاً من أن أوقع أنا بها.. لست أدرى لماذا تذكرت صديقى بكرى فى تلك اللحظة ، وخيل إلىّ أنه يرانى ويقهقه ساخراً منى وأنا أبدو ألعوبة فى يد هذه الحسناء الفاتنة ... أنا الذى طالما سردت عليه من أنباء صولاتى وجولاتى ما تتضاءل إلى جانبه مغامرات دون جوان ... يبدو أن صمتى قد طال فقد قربت وجهها منى ورفعت بأناملها رأسى المطرق فشملت بشذا أنفاسها .. أعادت سؤالها برقة :

- "لماذا تبدو حزيناً يا .... سمسم ؟"

لم أدر بم أجيبها ... اغتصبت ابتسامة تمهيداً لإقناعها بأننى على ما يرام ، حين دوى الرعد متوالياً منذراً بمطر شديد ...... فقلت متذرعاً بحال الجو :

- "الحقيقة ... الحقيقة أن الجو الممطر يصيبنى بالكآبة دون مبرر..."

- لأنك تعيش وحـدك يا مسكين .. إن الوحدة تجـعلنا مرهفى الحس .. كما تجعلنا أكثر عرضة للحزن لأوهى الأسباب" .

وصمتت برهة ثم ابتسمت بإغراء قائلة :

- "لذا تجدنى كثيراً ما أبكى دون سبب ... فأنا أعيش وحيدة ... وحيدة تماماً" ....

عاودنى الأمل لاستئناف علاقة حميمة معها تستمر لأسابيع أو أشهر دون منغصات فى ظل ظروفها الميسرة ، وعلىّ أن أجاريها إذن فى ثرثرتها فهى صيد ثمين يستحق الصبر . وسألتها مبدياً تعاطفى معها:

- "هذا شئ قاسٍ على من كانت مثلك فى ريعان شبابها .. لكن لماذا لا تعيشين مع والديك ؟"

- لقد ماتا فى حادث وأنا فى الثامنة من عمرى"

- "يا له من شئ فظيع .."

- وكفلنى عمى ، ولكنه كان يضيق بى ويعتبر نفقتى اعتداء على قوت أبنائه ."

- "يا للقسوة .."

- أما زوجة عمى فكانت تكرهنى دون مبرر .. وتعهد إلىّ بأعمال كثيرة فى المنزل .. وما زالت بعمى تدفعه للتخلص من إقامتى بينهم حتى أجبرنى على الزواج من صديق له وأنا فى السابعة عشرة من عمرى..

وخيرنى بين الزواج منه وبين الخروج للشارع دون سند من مال أو عمل فرضيت بالزواج رغم أن زوجى كان أيامها قد شارف الخمسين"...

اعترضت :

- "تعنين طليقك ."

فابتسمت بمكر وقالت :

- "نعم .. طليقى ."

- "لم تتحملى الحياة معه .."

- "بل تحملتها عشر سنوات كاملة .. عانيت خلالها ما لا يخطر على بال بشر ... ولولا إصرارى منذ بداية زواجنا على الالتحاق بالجامعة لما أنهيت دراستى أبداً .. فقد كان زوجى يكره ذهابى إلى الجامعة ويغار علىّ من زملائى وأساتذتى والفراشين وكل من يحمل صفة "رجل" .

قلت ملاطفاً آملاً أن يتغير مجرى الحديث :

- "ولماذا تصر فاتنة مثلك على إجهاد نفسها فى الدراسة ؟" ...

إن هذا الجمال قد خلق ليتعبد فى محرابه البشر ."

فشلت خطتى فى مغازلتها إذ قالت بإباء :

- "لم أكن أريد أن أعتمد على رجل يذلنى بإنفاقه علىّ مثلما فعل معى عمى .."

يا لها من ليلة ليلاء .. هذا المطر ينهمر بجنون على الزجاج فيزيدنى غيظاً من فرط حزنى على ليلة كان ينبغى أن تمر علىّ مترعة بالحب

والعشق بعد طول حرمان ، فإذا بها تتحول من حيث لا أدرى إلى محطة اعتراف لهذه الحسناء الغريبة ...

استرخيت في مقعدي مشعلاً سيجارة ريثما تنتهي سوس من قصتها الطويلة فقد بدت لى الليلة شبيهة بأمسيات السمر التى كنت أقضيها مع بكرى في الواحات نظل نجتّر قصصاً من الماضى تشاركنا وحدتنا وتبدد مللنا كيف بالله نفعل نفس الشئ أنا وسوس وفى وسعنا أن نبدد وحدُتنا ومللنا بأشياء ألطف بكثير من القصص المبعوثة من غياهب الماضى ؟؟

- "تخرجت فى كلية السياحة والفنادق ، وعملت فى مجال الإرشاد بالرغم من اعتراض زوجى الصارخ على عملى . ولن أستطيع أن أتجنى عليه فأقول إنه كان يبخل علىّ بل على العكس كان كريماً معى إلى أقصى درجة ، فأمطرنى بالذهب والثياب والعطور وكتب لى سيارة باسمى وكذلك شقة "

- "الشقة التى تقيمين بها الآن ؟"

- "نعم "

- "أرى أن كل ما فعله معك دليل على حبه . فما الذى أدى بكما إلى الطلاق؟"

- "بل كان دليلاً على حب التملك لديه لقد كنت بالنسبة إليه إحدى مقتنياته الثمينة وما كان إغداقه المال علىّ إلا محاولة رخيصة لاستقطاب مشاعرى نحوه خاصة وأنه عانى طوال رواجنا من شعوره

بالنقص لفارق السن الكبير بيننا ، ولعقمـه الذى اكتشفه بعد أن مرت علينا ثلاث سنوات دون إنجاب .."

اللهم هبنى الصبر .. ها نحن نتطرق إلى مـشكلة عدم الإنجاب فأى ليلة حب تلك التى كنت أُمنى بها نفسى ؟

- "أتدرى يا سمسم ؟؟"

ابتسم يـا دكتور سـمسم ... ها أنت قـد هجرت الواحـات إلى عروس الثغـر .. وها أنت قد استبـدلت جفاف العـام المنصرم بفاتنة يذيب سـحرها الحجر ... فأى لعنة حلت بك بمثل هذا الحديث ؟؟

- "سمسم - هل تسمعنى ؟"

- "بالطبع يا عزيزتى ."

- "أتدرى ؟ .. إننى لم أتحمل العيش معه لأكثر من عشر سنوات .."

نعم .. نعم .. بعدمـا حصلت على الشـقة والسيـارة وتلك المجوهرات التى تزين جيدك ومعصميك .

- "طالبـته بالطلاق وأصـررت عليه .. إننى ... فى ريعـان شبـابى كـما ترى.. وهو قد شارف الستين .. ومن حقى أن يكون لى طفل .."

- "دون شك .."

- "ورغم ذلك فقد كنت على استعـداد أن أضحى بشبابى وأمومتى من أجله .. لو كان قد كتب لى عمارتى وسط البلد وعزبته الشرقية .. لكنه كان أنانياً إلى أقصى حد ... واستخـسر فىَّ هذا الثمن البسيط .. وفرط فىَّ رغم تنازلاتى الكثيرة .."

داريت امتعاضي منها وقلت :

- "يا له من جاحد .."

- "لكن الطلاق لم يكن نهاية معاناتى .."

صبّرني يا رب .. واجعله آخر معاناة لى .

- "فلم تكد تمضى أربعة أشهر حتى كان يطاردنى فى كل مكان ويسلط علىّ كل معارفنا يرجونى أن أعود إليه بأى ثمن ."

يا له من أحمق ..

- "رفضت بالطبع .. فقد جربت حلاوة الحرية وعذوبتها ... وكان من المحال أن أعود إليه .. إنه شخص كريه ومريض بالغيرة ..."

ومالت بجذعها إلى الوراء فصارت جلستها أقرب للاستلقاء ، وقالت بدلال :

- "ثم إنه من حقى أن أتزوج من شاب .. ألا ترى ذلك ؟"

ولا أدرى لم شعرت بغصة فى حلقى فازدردت ريقى بصعوبة وغمغمت موافقاً .. ثم قلت متملصاً من حرج مفاجئ دهمنى :

- إننى أشعر بجوع شديد ، سأتصل بأحد المطاعم وأطلب عشاء فاخراً.."

إنفجرت ضاحكة من قولى فنظرت إليها متسائلاً ، قالت وكلماتها تتعثر فى ضحكاتها :

- "كم أنت خفيف الدم يا سمسم .. أى مطعم هذا الذى سيبعث إليك بطلبك فى هذا الجو ، وشقتك على بعد أمتار من البحر .. ؟؟"

تنبهت فجأة إلى رداءة الجو واقتربت من النافذة ألقى نظرة على الطريق فلم أر سوى سواد حالك . وكان المطر لا يزال يدق زجاج نافذتى بلا هوادة..

- "لا أرى شيئاً .. المطر شديد وصوت الرياح مخيف ."

حدقت بى برهة ثم قالت

- "أهذه شقتك أم أنك لست من أهل الإسكندرية ."

تلعثمت لحظة غير أننى تمالكت نفسى بسرعة وقلت مؤكداً :

"هذه شقتى بالطبع ... ملكى .. إلا أننى كنت فى بعثة فى إنجلترا للدراسة ولم أعد إلا منذ أشهر قلائل ..."

- أتنسيك سنوات البعثة نوّات شهر يناير بالإسكندرية ؟".

- "نوّات .. تعنين أن هذه الأمطار مقدمة نوّة ؟"

- "إنها أسوأ نوّة تصيب الإسكندرية .."

- رباه .. وكيف يسير الناس فى الشوارع ؟"

نظرت إلىّ نظرة ذات مغزى وابتسمت بإغراء وهمست :

- "الناس فى هذا الجو يمكثون فى بيوتهم ."

طرب قلبى جذلاً .. أخيراً لاحت تباشير فرح فى هذا اللقاء المريب .. وهذه الحسناء الماكرة جاءت إلىّ وهى على علم بوقت النوّة .. جاءت رغم المطر موقنة أنها لن تستطيع العودة إلى بيتها قبل غد أو ربما بعد غد.

وفجأة شعرت أننى لست نادماً على الوقت الذى ضاع فى حديث

طويل معها .. إن كانت ستمضى الليل كله معى فلست أستخسر فيها ساعة ضاعت في كلام .. بيد أننى أردت أن أستوثق من فكرة بقائها فسألتها مبتسماً :

- أظن أن أمر عودتك إلى منزلك الليلة من الصعوبة بمكان!"

اعتدلت واقفة وقالت بمرح :

- سنمضى معاً وقتاً لطيفاً .. لقد قلت لك يا سمسم إننى لا أطيق الوحدة فى هذا الجو الحزين .. هلم نعد عشاء معاً .."

عقب العشاء جلسنا متلاصقين نحتسى الكاكاو الساخن .. بدت لى وهى منكمشة إلى جوارى قطة جميلة جديرة بالتدليل .. عزمت ألا أدعها تجرجرنى إلى أحاديثها الشخصية مرة ثانية وأن أبدأ فى "العمل" فوراً فأحطتها بيمناى وجذبتها برقة فأراحت رأسها على صدرى وهمست :

- "إننى أشعر براحة شديدة إلى جوارك يا سمسم ... كأننى أعرفك منذ سنوات وسنوات .."

قلت مجاملاً :

- "وأنا كذلك يا سوسن .."

- "إن ارتياحى إليك يجعلنى أطمع فى أن تسدى إلىّ خدمة جليلة ".

توجست خيفة .. بيد أننى صمت منتظراً ما ستأتى به من حديث ....

- "لقد فكرت أنه ما من سبيل للتخلص من مضايقات طليقى لى فى البيت والعمل إلا أن ييأس تماماً من إمكانية استئناف حياته معى" ....

تمتمت بلا مبالاة ويمناى تعبث فى شعرها الناعم وتحل عقصته :

- "نعم .. دعيه يعلم علم اليقين ألا سبيل له إليك ..."

قالت :

- "وهذا لن يتأتى إلا إذا تزوجت .. حينئذ يعرف أننى لن أكون له مهما فعل ..."

فتوقفت يدى عن العبث بشعرها برهة ثم قلت ببطء :

- "فكرة جيدة .. ولكننى أنصحك بالتأنى هذه المرة فى اختيار شريك حياتك ...." !

رفعت إلىّ عينيها الواسعتين ورنت إلىّ بحب ، ثم همست بإغراء :

- "أتتزوجنى .. يا سمير ؟"

تقفزت من مكانى كمن لدغه ثعبان ، ثم ضحكت بعصبية وأنا أذرع الحجرة جيئة وذهاباً :

- "هل هذا وقت هزار يا سوسن ؟"

اعتدلت فى جلستها وقالت ووجهها ينضح بالبراءة :

- "لكننى جادة يا سمسم .. تزوجنى ولو لبضعة أشهر .. ريثما ييأس طليقى منى .. أنت لا تتصور كمّ المشاكل التى يسببها لى بتحرشه بى فى العمل ...."

رددت بآلية :

- "أتزوجك ؟ ... أتزوجك ... ؟"

نهضت برشاقة وتعلقت برقبتي وهمست بنعومة :

- "إنني شابة وجميلة ... كما أن لديّ مالاً وفيراً كان طليقي يضعه باسمي في البنك في شتى المناسبات .."

رنت إليّ ملياً ثم قالت بصوت مفعم بالأنوثة :

- "وأنت شاب .. وسيم .. كما أنك طبيب ... وشقتك تشي بمستوى مادى جيد .. إننى بحاجة إلى الزواج منك .. وسترى أننى سأكون لك نعم الزوجة .. كفاني حرماناً وعذاباً ووحدة ذقتها على يد رجل يفوق عميّ سناً... دعنا نجرب الزواج من بعضنا فقد تنجح زيجتنا نجاحاً مبهراً.. سأسعدك .. سأسعدك لأننى أريد لزيجتنا أن تنجح .. سأسعدك لأننى طالما تمنيت الزواج من شاب لطيف مثلك .. ومن عجب أننى كنت أحلم منذ صباى الباكر .. بالزواج من طبيب .. سمسم .. مالك لا تجيبنى؟؟ ... هل فاجأك عرضى ؟ ..

هل أنت متردد لأننا لم يعرف بعضنا البعض لفترة كافية ؟؟ .. لا تقلق.. اعتبرها مجرد تجربة وممكن أن ننفصل بعد أشهر قليلة إن أردت أو شعرت بأن زواجنا لم يسعدك .. إنها خدمة يا سمسم فهل ستترك امرأة وحيدة مسكينة مثلى فى مأزق دون أن تمد لها يد العون ؟ ...."

يالها من ورطة !...

المطر لا تبدو له نهاية ... والبرق والرعد يصنعان معاً خلفية مخيفة ملائمة جداً للمأزق الذى وضعت نفسى فيه .. وهتف بى هاتف أن أطردها من البيت رغم فظاعة الجو إلا أننى خشيت أن تفضحنى فى

العمارة ولم يمض على سكنى بها يومان خاصة أننى قلت للبواب إنها خطيبتى ...

فلأجن حصاد عملى وأتحمل إقامتها ولو لليلة ثم أتخلص منها بعد ذلك .. فلا تعود لى بها علاقة بعد اليوم أبداً ....

اقتحمت أفكارى بجرأة معيدة سؤالها :

- "ماذا قلت يا حبيبى ؟ هل تتزوجنى ؟؟"

اغتصبت ابتسامة وقلت واضعاً فى صوتى ما استطعت من صدق :

- "إنه ليسعدنى أن تكونى زوجتى .. والآن ألا نحتفل بهذا القرار بما يليق به ؟؟"

رنت إلىّ باسمة وحركت سبابتها كالمتوعدة وقالت :

- "إياك أن تخلف وعدك ..."

- أبداً ، أبداً ....."

- "نستدعى المأذون ما أن تهدأ النوة ..."

- "لك ذلك .. والآن هيا ...."

وأحطت خصرها بذراعى وهممت أن أقبلها قبلة أودعتها حرمان عام طويل جاف ... أخيراً أخيراً أيتها الفاتنة اللعوب أضمك إلى صدرى ... وأغمضت عينيها تنتظر قبلتى .. وإذا بجرس الباب يرن بإلحاح ففتحت عينيها جزعة وتساءلت ...

- "أأنت فى انتظار أحد ... ؟"

- "بالطبع لا ... "

جذبتها إلى صدرى عازماً على تجاهل طرق الباب ... من المجنون الذى يأتى شقة خالى المغلقة فى هذا الجـو المخيف ؟ مؤكد أنه "عرابى" الثرثار ... حسابى معه سيكون عسيراً ....

استـمـر رنين الجرس مـتـواصلاً مـصحـوباً بقـرع شديد على البـاب .. فاعترانى غضب وغيظ شديدان وهتفت محنقاً :

- "من ؟؟ ..."

جاءنى صوت "عرابى" صائحاً :

- افتح يا دكتور سمير .. افتح يا بيه ..... "

هذا الأحمـق سيسـبب لى فضـيحـة فى العمارة كـلها .. كمـا أنه يعلم بوجود خطيبتى المزعومة معى فماذا دهاه ؟ .....

وهمست سوسن برجاء :

- "افتح يا سمير قبل أن يسمع صياحه جيرانك ... "

فتحت الباب بعنف وأنا أصيح غاضباً :

- "ماذا تريد أيها الغبى ... ؟؟"

وجاءنى صوته محملاً بالقلق يقول :

- نأسف لإزعاجك يا دكتور سمير ."

فالتفتّ تجاه الـصوت فما راعنى إلا رؤية وجه ملائكى لصـبية لم تجاوز السابعة عشرة ومعها امرأة ما شككت للحظة أنها أمها .....

عادت الأم تقول :

- "لولا الظروف لما أزعجناك ولم يمض على وصولك سوى يومين...."

تعلقت عيناى بوجه ابنتها الساحر وقلت بصوت متهدج وقد نسيت سوسن تماماً :

- "على الرحب والسعة يا سيدتى ...."

وبدد صوت عرابى الأجش عذوبة اللحظة قائلاً وهو يحرك رأسه يمنة ويسرة محاولاً أن يمد بصره إلى داخل الشقة :

- "نعلم أنك مشغول جداً يا دكتور .... "

نظرت إليه لائماً وأزحته بعيداً عن الباب وقلت بحنق :

- "لا عليك يا عم عرابى" .

قال بحماس :

- "الدكتور سمير أمهر طبيب عرفته . لقد عالجنى من الصداع بقرص واحد ..... أقسم بالله .. قرص واحد لا غير ...... وأنا الذى حرت مع كل الوصفات المجربة وشربت العشرات من أكواب الشاى ... وابتلعت الكثير من أقراص الأسبرين .. "

اللعنة على ذلك المسكن القوى الذى أعطيته لعم عرابى ....

ليتنى تركته يعانى من الصداع .......

استطرد الرجل وأنا أرمقه بغيظ :

- "بسم الله ما شاء الله ... يده فيها الشفاء .. قلت للست جمالات إن ربنا يحب الهانم أختها ... لأنه بعثك لنا أمس .... ولولا هذا لواجهنا

كارثة بحثاً عن طبيب ينجدنا فى مثل هذا الجو .... الميه يا بيه فى الشارع شبرين و ....."

قاطعته الست جمالات قائلة بأدب لم يفلح فى مداراة جزعها :

- "الحرارة مقطوعة عن التليفونات بفعل الأمطار الشديدة ولولا هذا لاتصلنا بالطبيب الذى يباشر حسنات أختى .... "

هممت بالاعتراض حين فوجئت بذراعين بضتين تحيطان خصرى من الخلف ، وصوت سوسن يتساءل بنعومة :

- لماذا تأخرت يا سمسم ؟؟"

التفت إليها منزعجاً من ظهورها أمام الجيران بهذه الصورة ونظرت إلى شعرها الذى تركته مهدلاً على كتفيها وجبينها باهمال من جراء عبثى به .. وإلى قدميها الحافيتين الموحيتين بطابع لقائنا ، ولمحت لأول مرة بقعة من أحمر شفاهها على ملابسى فحاولت مداراتها عن عينى جارتى المتفحصة . يا لها من امرأة داهية ... أتظن أنها بإحراجى أمام الجيران بمستطيعة أن تورطنى فى الزواج منها ؟؟ كلا ....... وألف كلا... سأتخلص من علاقتى بها فى أقرب فرصة ، وإن سألونى عنها يوماً أقول إن خلافاً حاداً قد دب بيننا ففصمنا خطبتنا دون أسف ....

ويبدو أن خطتها قد سارت وفق هواها ، فسرعان ما اجتذب مظهرها وتبسّطها فى معاملتى اهتمام ثلاثتهم فتناست جمالات شقيقتها المريضة وسألتنى باسمة وهى تفحص سوسن من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها:

- "حضرتك متزوج يا دكتور ؟؟"

أسرعت أنفى "التهمة" ....

- "لا .. لا .. لست متزوجاً .... "

تبدت الدهشة فى عينيها وعلا وجهها شئ من الاستياء فتداركت الأمر خشية الفضيحة :

- "ولكنى سأتزوج قريباً .. قريباً جداً ... خلال شهر على أكثر تقدير...."

ابتلعت استياءها مرغمة ، وهممت أن أسألها عن طبيعة مرض أختها حين دوّت صرخة هائلة فى جنبات الطابق فتخلّت الست جمالات عن رقتها ، وجذبتنى من يدى جذبة شديدة فكدت أنكفئ على وجهى ... ثم ألقت بى القاء فى الشقة المواجهة لشقة خالى مع ابنتها ....

***

- " أبشرى يا حسنات .. وجدنا طبيباً يده بلسماً ... شدى حيلك يا أختى .."

وتلفت حولى فى الحجرة فما راعنى إلا وجود امرأة بدينة مستلقية على الفراش بادية التعب والإجهاد ، تنطق ملامحها بالألم الشديد وتكاد تختفى تحت طبقات كثيرة من البطاطين فلا يكاد يبدو منها غير رأسها الذى جلست عنده عجوز فى جلباب أخضر وطرحة بيضاء وتتحرك يدها برتابة على رأس المريضة بينما ترتعش شفتاها بكلمات عجزت عن تفسيرها .

وتلفت حولى بحيرة بالغة وتساءلت بصوت مرتعش :

- ما الذى يحدث هنا ؟

أجابتنى المريضـة بصرخة مـفزعة أطارت لبّى فـلذت بالواقف بجوارى وأمسكت بثيابه أحتـمى به ولم يكن من لذت به سوى الست جمالات التى دفعتنى دفعة شديدة وهتفت بى مؤنبة :

- "أرفع يدك عنى وباشر عملك" .

تمتمت واجفاً :

- "مم تشتكين يا هانم ؟"

انفجـرت المريضة ضـاحكة وكأننى قـد ألقيت بنكتـه وأنهت ضحكتـها بصرخة ارتجف لها قلبى ..

مقّدر ومكتوب ...

وقعت فى يد جماعة من المجانين ....

قالت الست جمالات بحدة :

- "باشر عملك .. سأذهب لوضع الماء .. على الموقد" .

- "أشكرك .. لا أريد شاياً ولا قهوة .."

عادت الشابة النائمة على الفراش تضحك رغم معاناتها .. بينما نظرت إلىّ أختها بريبة ..

ثم مصمصت بشفتيها ........

وتمتمت وهى تستدير :

- "ييجى سى عرابى يشوف شورته" .

ولمحت الصبية الحسناء واقفة على مقربة من الباب منكمشة على نفسها، رجعت خطوتين إلى الوراء حتى صرت لصقها .. وغمرني شذا عطر خفيف ينبعث من شعرها فأسكرني وأنساني ورطتي مع سوسن وموقفي الحالي مع نسوة يتمتعن بدرجات متفاوتة من الجنون .. ورنوت إليها بإعجاب فتورد وجهها حياء ...

أطربني حياؤها إلى درجة لم أتوقعها .. تذكرت أن آخر عهدي بمغازلة الفتيات البريئات كان منذ سنوات طويلة .. راقني أن أتودد إليها مستعيداً ومضات من عهد البراءة . ولوهلة حرت كيف أبدأ معها حديثاً دون أن أثير حفيظتها حين تأوهت المريضة ألماً فأومأت إليها متسائلاً :

- "أهي خالتك" ؟

أحنت رأسها بالإيجاب .

سقيا لعهد البراءة الجميل ... كم تبدو عذبة وهي تغالب خجلها إن بها سحراً لا يقاوم ... سحراً يدعوني لأن أبدأ معها قصة حب رومانسية على هامش صولاتي وجولاتي في عالم العشق والعربدة ..

أردت أن أتبين إن كانت هي المقيمة في هذه الشقة مع والدتها ..... أم أنهما قد جاءتا لتمريض الخالة المريضة في منزلها ، فسألتها هامساً محاذراً أن يصل صوتي إلى العجوز التي تتمتم بالأدعية :

- "هل تقيمين مع خالتك بصفة دائمة ؟"

- "بل هي التي حلت علينا ضيفة لبضعة أشهر ريثما تلحق بزوجها في السعودية حين تسنح الظروف ".

يا لى من محظوظ .. وسوف أنعم بهذه الجيرة طويلاً .. ندت صرخة عن المرأة النائمة فى الفراش فانتزعتنى من سكرة الجمال .. إلا أننى خشيت ألا أجد فرصة أخرى أنفرد فيها بالصبية الجميلة فأسرعت أقول لها هامساً :

- "اسمى الدكتور سمير سليمان .. وعمرى واحد وثلاثون عاماً .. فهل لى أن أعرف اسمك ؟ .."

فتحت الجميلة شفتيها الورديتين لترد ، غير أنها أطبقتهما بسرعة حين صك سمعها خطوات أمها التى جاءت ومعها إناء يتصاعد منه البخار .. ولما وجدتنى قريباً من ابنتها ألقت إليها بنظرة زاجرة وقالت بحزم :

- "اذهبى يا نوال واحكمى الغطاء حول إخوتك ولا تأت ثانية حتى نستدعيك .."

إنفلتت الصغيرة بسرعة يتبعها قلبى ونظراتى ...

- ما تشوف شغلك يا دكتور" .

هادمة اللذات .. حتى النظرة تستكثرها علىّ .

- "لكن يا سيدتى .."

صرخت حسنات صرخة مخيفة فانخلع قلبى .

- "سأموت يا جمالات" .

- "لا تقولى هذا يا حسنات . أنت بخير .. هيا يا دكتور .."

- "لكن .. "

تدخلت العجوز فى الحديث لأول مرة وقالت وهى تنهض بخفة لا تتناسب مع السنين التى تحملها فوق .. كاهلها :

- يبدو أن الشيخ فرغلى قد كف عن الدعاء .."

سمعت خطواتها تهرول تجاه باب الشقة . فتحته ونادت بصوت مرتفع :

- "دعواتك يا شيخ فرغلى" .

كان الألم قد بلغ بحسنات مداه فصارت تنتفض وتتأوه بصفة متصلة حين عادت العجوز إلى مكانها المختار وفي أعقابها دلفت سوسن بخفة.. آه.. لم يكن ينقصنى سوى هذه المرأة أيضاً ..

- "ماذا حدث يا سمسم ؟؟"

وكنت قد استنتجت من كل ما رأيت أن هذه المرأة تعانى من حالة نفسية فأجبت سوسن هامساً :

- "يبدو أن هذه المرأة تعانى من مرض نفسى يجعلها تصرخ كما ترين ففغرت سوسن فاها وهى تنظر إلى المرأة بتمعّن بينما مِلت على حسنات متسائلاً كى لا أثير إحدى نوبات الصراخ لديها :

- "سيدتى ... هل هذه هى المرة الأولى ؟" .

تأوهت وقالت وهى تكتم صرخة :

- "نعم .. وأنا متعبة للغاية يا دكتور .. سأموت لا محالة ... " ...

ربتّ على يدها مهدئاً واسترسلت أسألها :

- "أفهم من هذا أنك لم تعان من أعراض الهيستريا من قبل ؟" .....

رنت إلىّ المريضة برهة ثم عادت تضحك حتى استحال ضحكها قهقهة عالية وطفقت تقول وضحكاتها تعانق تأوهاتها :

- "أنت غير معقول يا دكتور .. أنت رائع .. إن لك أسلوباً ساحراً لتجعل المريض ينسى آلامه .. أهذا هو العلاج بالضحك .. اعترف لك بأنه أسلوب جديد غير مألوف إلا أنه فعال للغاية فإننى بالفعل كدت أنسى معاناتى .. " ..

رجعت إلى الوراء مستاء .. أتسخر منى هذه المرأة ؟ وقطبت وقلت لسوسن هامساً مبرراً حرج موقفى :

- "يبدو أن حالتها النفسية شديدة التدهور .. إنها تضحك وتصرخ فى آن واحد .. سأكتب لها دواء مهدئاً ريثما تستدعى أخصائى أمراض نفسية"....

حدقّت سوسن فى وجهى بذهول وقالت بنفس الصوت الهامس :

- "إنها تضع يا سمسم ... ألا ترى بطنها ... ؟؟" ...

التفت مرتعباً إلى بطنها وكأننى أراها لأول مرة ، ولم يكن بطنها يرتفع كثيراً عن الفراش وهى مستلقية ، فلم أدرك من فرط ارتباكى حقيقة ما تعانيه المرأة أهى حقاً .. تضع ؟؟ تضع ؟؟ مالى أنا وهذه المصائب ؟؟ الهستريا يمكن تداركها أما حالة الوضع هذه .. فماذا عساى أن أفعل أمامها..؟

وضحكت لسوسن أدارى ارتباكى ، فسألتنى بريبة محاذرة أن ترفع صوتها :

- "سمسم .. ألست طبيباً ؟؟"

أكدت لها همساً :

- "بالطبع أنا طبيب ولكننى .."

واقتحمت العجوز حديثنا وكأنما فطنت فجأة إلى وجود سوسن فى الحجرة وتساءلت بلهجة آمرة :

- "مين السنيورة يا سى الدكتور ؟؟"

ردت سوسن بسرعة وثقة :

- "أنا خطيبته .. وسنتزوج غداً .. "

فلتتوال المصائب على رأسى المسكين ، لولا الهيئة التى رأوها عليها فى الشقة لأنكرت مزاعمها ولكنني اعتصمت بابتسامة بلهاء وتساءلت بينى وبين نفسى عما جنيت لأبتلى فى يوم واحد بسوسن وحسنات وعم عرابى ! ..

انتزعت انتزاعاً من خواطرى على صوت جمالات تحثنى لأساعد أختها التى أخذ صراخها يشتد ويتوالى فانحنيت على بطنها ومددت يداً مرتجفة أربت بها على الكرة المرتفعة أمامي ثم رفعت وجهاً يتصبب عرقاً وقلت متلعثماً :

- "الطفل .. هناك طفل فى الداخل .. ... إنه يتحرك .. ولكننى أريد أن أقول إننى .... "

وذابت كلماتي في صرخة مدوية أطلقتها حسنات ، وقد تشبثت بيدى كغريق يصارع الموت فهتفت العجوز بفرحة وقد انحنت تفحص الأم :

- " يا ألف نهار أبيض .. وشك وش الخير يا دكتور .. أهى الرأس قربت تنزل .. شدى حيلك يا حسنات يابنتى .. هانت ... " ..

تساءلت منبهراً :

- "حقاً ؟؟" ...

فظنت العجوز أننى أشكك فى معرفتها فقالت باعتزاز :

- "تعال فانظر بنفسك إن كنت لا تصدقنى".. ولكن اعلم أن أختى كانت أمهر داية فى الإسكندرية وكثيراً ما كنت أصحبها لأساعدها فى التوليد .."

يا فرج الله ..

على الأقل يوجد فى الحجرة من يستطيع تقديم العون وسط هذا الخضم من الجنون .. النوة ... والأمطار ... وصفير الرياح ...... تأوهات حسنات... وحركة جمالات الدائبة وتمتمة دعوات العجوز .. سوسن .. ونوال الغضة الفاتنة ، وقلبى المعربد ... يا لها من ليلة .... يا لها من ليلة!....

لاحظت جمالات أننى لم أفعل شيئاً منذ دخولى إلى الحجرة فسألتنى:

- "وهل ستظل تراقبنا هكذا يا دكتور .. افعل شيئاً .... الا ترى أنها قد أجهدت وما عادت بقادرة على عمل شئ .. ؟"

قلت تلقائياً :

- "فلنرسل فى استدعاء طبيب .."

فهتفت سوسن :

- "فى هذا الجو المخيف ...؟"

وتمتمت العجوز :

"العون من عند الله وحده ... الله هو الطبيب .. "

ثم رفعت صوتها زاعقة .....

- "دعواتك يا شيخ فرغلى ..."

وصاحت بى جمالات :

- يااللمصيبة ألست طبيباً .. ؟؟"

فأوضحت ... :

- "نعم طبيب ولكننى ..."

لمحت نوال تدخل الحجرة كالطيف ، وقاطعتنى هامسة بصوت دامع :

- "ساعد خالتى أرجوك يا دكتور .."

فذاب قلبى وجداً واشتعل حماسى لهباً ، لأثبت للصبية الجميلة مهارتى، وأؤكد لسوسن تفوقى ، فهتفت وأنا أقترب من حسنات وأشد على يدها التى تشبثت بها .. :

- "هايلة .. هايلة برافو شدّى حيلك .. أنت ماشية كويس قوى .. الطفل بيتحرك بيتحرك بشدة .. يحاول يخرج .. يحاول جامد ... "

ولم يكن فى وسعى أن أقدم لها أكثر من التشجيع الحار .. وقد خيل إلىّ وأنا أردد هذه الكلمات وما شابهها أننى مثل معلقى مباريات كرة القدم! .. كان منظرى مثيراً للضحك إلا أن أحداً لم يستجب لباعث المرح

سوى سوسن التى جاهدت كى لا تتحول ابتسامتها الواسعة إلى قهقهة عالية وقد قرّ فى نفسها ولا شك أننى لست طبيباً ولا يحزنون .. أما العجوز وجمالات ونوال الجميلة فقد اغشى القلق عيونهن عن موطن الضحك فى موقفى ذلك ....

ولعل أفضل ما حدث ساعتها هو استجابة حسنات استجابة رائعة ، فكأنما أعطاها تشجيعى دفقات من القوة ، وكأنما وهبها وجودى شعوراً مريحاً بالأمان ، فسرعان ما امتلأ فضاء الحجرة ببكاء مرتفع متواصل فزغردت جمالات وبكت نوال وصفقت سوسن ولهجت العجوز بالشكر لله ...

مدت جمالات إلىّ يداً ترتعش من الفرحة وناولتنى مقصاً من وعاء به ماء مغلى وهتفت بحبور :

- "سلمت يداك يا دكتور ... لو تعرف كم انتظرنا هذا الطفل .. أربع سنوات ... أربع سنوات طوال " فتناولت المقص مرتجفاً وهمست :

- "ماذا أفعل به ؟" ...

ابتسمت حسنات وقالت بوهن :

- "لا داعى لإضحاكى الآن يا دكتور .. فقد ولدت والحمد لله والضحك الآن يؤلمنى" .

وصاحت العجوز بنفاد صبر :

- اقطع الحبل يا دكتور .. الحبل .. الحبل " .

فتلفت حولى باحثاً :

- "أى حبل " ؟؟

انتزعت العجوز المقص منى بضجر وبمهارة .. انحنت على الطفل فعقدت قطعاً من الشاش النظيف حول الحبل السرى للطفل من طرفيه ثم قصته بين العقدتين فتدفقت الدماء وأسرعت جمالات ترفع الطفل وتدفئه بالأغطية حتى هدأ ونام ...

ساد الحجرة السكون فلم يعد يسمع سوى صوت الرعد والأمطار فى الخارج وتفحصتني جمالات بإمعان ثم قالت :

- "قل لى الحقيقة يا دكتور سمير .. أأنت حقاً طبيب ؟"

- "أنا دكتور ... والله العظيم دكتور .. أنا .... دكتور أسنان ...."

فدقت صدرها وولولت :

- "يا مصيبتى .. دكتور أسنان ! "

فدافعت عنى حسنات من مرقدها :

- لكن قدمه كان قدم السعد يا جمالات .. هو الذى أضحكنى وقام بتسليتى حتى نسيت آلامى .. أنه يستحق الخير "

وآزرتها العجوز وقد تطلّق وجهها بالبشر :

- "معك كل الحق يا حسنات يا ابنتى .."

ثم قامت من مكانها بنشاط وهى تقول :

- "والنبى لاهاديك أنت والسنيورة خطيبتك بهدية تجعل الفرحة فرحتين "

واتجهت صوب باب الشقة تنادى الحاج فرغلى .....
فسألت عمن يكون الحاج فرغلى هذا فردت الست جمالات :

- "ألا تعرف الحاج فرغلى ؟؟ إنه بركة هذه العمارة ... بل بركة الشارع بأكمله ... شيخ الجامع الموجود على ناصية الشارع ، ومأذون الحى ، ويقوم بتحفيظ القرآن للأطفال فى عطلة الصيف "

وسرعان ما عادت العجوز يتبعها شيخ فى جلباب أبيض فضفاض فقدمته إلىّ ثم أشارت إلىّ وإلى سوسن :

- "الدكتور سمير قدم الخير علينا.. والست خطيبته وينوون الزواج غداً."

فغرت فاهى وهممت بالاعتراض لولا أن المرأة استطردت بسرعة :

- "أريد أن أقدم هدية له بجعلك تعقد قرانهما كى تحل البركة بحياتهما."

ونظرت إلى سوسن مذهولاً أناشدها بعينىّ أن تعترض فما راعنى إلا ابتسامة واسعة تشق وجهها بثبات وقالت :

- "هذا من دواعى سرورى يا سيدتى ..."

تحمست جمالات وحسنات للأمر فصحت لائذاً بحبل للنجاة :

- "ولكن أهلها ..."

فقاطعتنى سوسن بسرعة البرق :

- "كم كان أبى وأمى سيسعدهما أن يشهدا قرانى .. ولكننى للأسف يتيمة ... ... "

ودفعت بدمعتين إلى عينيها ثم رفعت رأسها بحركة تمثيلية وهى تقول بحرارة :

- "ولكن منذ اليوم سيكون سمير هو أبى وأمى وزوجى ، وكل أهلى.."

فزغردت جمالات وتمتم الحاج فرغلى :

- "على بركة الله ، ما رأيك يا بنى أن نعقد القران الليلة بدلاً من الغد ؟ اليوم الخميس وغداً الجمعة ... وتلك أيام مباركة ...

وقد وضعت الست حسنات غلاماً مباركاً علّه يكون فألاً حسناً عليكما بإذن الله ويرزقكما بالبنين والبنات ....

ثم إن خير البر عاجله ... سأذهب لإحضار الدفتر من الشقة" .....

فاعترضت بصوت باك :

- "وعمها ... عمها يجب أن يحضر قراننا . "

واجهتنى سوسن ببراءة وقالت :

- "نسيت أن أقول لك يا سمسم إن عمى اتصل بى أمس من أمريكا واعتذر عن عدم حضور عقد قراننا وزفافنا لانشغاله بأعماله الكثيرة هناك... إنه يتمنى لنا حياة سعيدة معاً . "

فتشبثت بآخر أمل وهتفت :

- "والشهود ؟ "

فتصدت الست جمالات لتذليل الصعوبات مخاطبة ابنتها :

- "يا نوال .. اطلبى من الشيخ فرغلى أن يحضر الأستاذ حمدى ابنه

معه واستدع عم عرابى ليشهدا على عقد قران الدكتور .. ألف مبروك يا دكتور"

تلفت حولي بخوف ... ثم أسلمت ساقى للريح وعدوت خارجاً .. غير مبال بالرياح المزمجرة .. والسيول المنهمرة .

ومض البرق وميضاً مخيفاً تبعه دوى الرعد ، فخيل إلى أن صوته يشبه قهقهة صديقى "بكرى" وهو يضحك ساخراً على خيبتى الثقيلة ...

# فندق بدون نجوم

تلكأت فى عيادتى عقب انصراف الممرضة .. شعرت بتخاذل يسرى فى أوصالى كلما هممت بالذهاب .. كل ما فى البيت الليلة ينفرنى من العودة إليه .. حفل عشاء فاخر على شرف ابنتى بسنت وزوجها .. والمناسبة إعلام الطبيبة لها أنها حامل فى شهرين .. حملت أمى خمس مرات فلما توحمت فى المرة الأخيـرة على سمك مشـوى نهرها أبى مـعترضـاً على دلع الحريم الماسخ .

سأجد حما بسنت وحماتها .. يستفزنى الرجل بتفاخره المستمر بما يملك وما يفعل .... يضيف ياء الملكية إلى أى كلمة فتصبح فى نظره أفضل ما فى الوجود .. يصدع رأسى بالحديث المسهب عن يخته وسيارته ومقره الشتوى وشاليهه الفـاخر فى ربوع سويسرا .. تكمل زوجته الصـورة المنفرة بتذمرها المستمر من كل شئ .. تضيق بالحـر والبرد .. تؤذى صدرها خماسين الربيع ويقذى عينيها عرى الأشجار فى الخريف .. تلعن الشوارع المتربة والزحام.. تتحـسر على تدنى الأخلاق .. ترتجف من حـسد الفقـراء على النعيم الذى تسبح فيه ، وتشهق حين تسمع عن فحش ثروات الآخرين ..

لا يتمـيز عنهـما زوج ابنتى إلا بقناع زائـف من الأدب يستر به تـكبره ، وغروره ، واحـتقـاره للأدنى ، وحسده لـلأغنى ، تتناغم بسنت مع أسلوب حياتهم بسلاسـة تذهلنى وتجعلنى أتساءل جدياً عما ورثته ابنتـاى عنى فيما عدا بعض الملامح ..

هما ابنتا أمهما لا مراء .. صاغت وجدانهما منذ حداثتهما وفق هواها... استغلت انشغالى ليل نهار فشكلت أسلوب تفكيرهما كما أرادت.. تلاشى تأثيرى على شخصيتهما أو كاد .. لطالما شعرت بنفسى منبوذاً بينهن..

يفتتنّ بالمظهر البراق .. يهمن عشقا بالمال .. يتحركن وسط عالم من الزيف والمصالح المادية بيسر يدهشنى ، لا يبدو أنهن يضقن ذرعاً بحفلات النفاق ، وتكلف المجتمعات الراقية ، أعلن عن رغبتى فى البقاء فى بيتى .. عندئذ تحدجنى علوية بنظرات استخفاف .. تهز رأسها يمنة ويسرة كأنها قد يئست من إصلاحى .. غير أنها لا تنسى قبل أن تولينى ظهرها أن تعلق بصرامة :

- "تذكر أنه لولاى لظللت إلى اليوم قانعاً ببيت شبرا الذى تزوجنا فيه.."

أشرد متذكراً البيت القديم ، وعروسى السمراء ذات الجاذبية الآسرة والطموح الجامح .... تلهب ظهرى بتطلعاتها المحلقة ، وتشحذ عزيمتى بأنوثة طاغية عرفت كيف توظفها فلا أكاد أرفض لها طلباً ، أعمل كثور فى ساقية لا تكف عن الدوران .. يحالفنى الحظ فيثمر اجتهادى أموالاً طائلة ألقيها تحت قدميها غير أنها لا تقنع أبداً .. وكل يوم تجد قمة جديدة ترنو إليها متطلعة فأعود أغرق فى دوامة العمل ..

انتزعنى رنين التليفون من خواطرى .. علوية تتعجل حضورى ولا شك.. تريد لصورتنا المثالية أن تكتمل أمام المجتمع المخملى .. سأتواجد بجسدى لكن عقلى وقلبى لا مكان لهما وسط تلك التمثيلية الكبرى .. فأى زيف وأى خداع !!

حدثتنى نفسى أن أتجاهل رنين الهاتف .. ستعتقد أننى فى الطريق إليها فتهدأ بالاً .. وإن عاتبتنى لتأخرى سأتعلل بازدحام الطريق ..

تواصل الرنين دون كلل .. رفعت السماعة فاخترق صوت غليظ غلالة السأم التى تلفنى لعلّه يعد بجديد ..

سرعان ما خاب أملى .. لم يكن المتحدث سوى طبيب شاب زعم أنه تتلمذ على يدى أثناء سنة الامتياز .. ذكر اسمه فلم أتذكره ، ولم يترك صدى يذكرنى بشكله .. قال إنه يريدنى فى أمر إنسانى .. ازددت شعوراً بالوحدة .. سيستشيرنى فى شأن حالة مستعصية ولا شك .. وسينوء قلبى بمزيد من الحزن إن أدركت أنها حالة لا أمل لها فى الشفاء ..

صدق حدسى .. الحالة لفتاة فى التاسعة عشرة مخطوبة لابن عمها منذ طفولتهما .. كانت سعيدة باقتراب ليلة زفافها حين فوجئ بها والدها تسقط أمامه فجأة فاقدة النطق والحركة ، وحين استدعى الجيران لها طبيب بلدتهم الشاب وجد أن الشلل قد أصاب نصفها الأيمن وأنه يرجح إصابتها بجلطة فى الفص الأيسر من المخ حيث مركز الحركة للنصف الأيمن ومركز الكلام.. ختم حديثه يرجونى أن أصحبه غداً إلى كفر أبو صيام .

استمعت إليه ذاهلاً .. أهو مجنون أم أبله ؟ ألا يعرف مركزى كأحد أكبر جراحي المخ والأعصاب فى مصر ؟!

أظن حقاً أننى قد أرضى بالذهاب معه إلى مجاهل لا علم لى بها لمجرد أن أفحص مريضة أياً كانت حالتها ! فليأت بمريضته إلىّ هنا إن كان أمرها يعنيه إلى هذه الدرجة ..

- "سيحز فى نفس أمها المقعدة أن تخرج ابنتها العروس من دارها على هذا النحو .. محمولة غير قادرة على الحركة .. سيتشاءم الجميع يا سيدى.. كما .. كما أننى وعدتهم أن أعود معك .. وحكيت لهم كثيراً عن مهارتك وإنسانيتك" .

فليتحمل نتيجة تعهده بما ليس فى يده ، إننى فى غنى عن المزيد من الأعباء ، وفى غنى عن إلقاء نفسى فى مجتمع لا آلفه ولا يألفنى .. وحسبى معاناتى التى اعتدتها مع الأوساط الراقية ..

سألته قاصداً تعجيزه :

- "هل تعرف كم تبلغ أتعابى لعلاج حالة كهذه والانتقال إليها؟

سارع يؤكد :

- "كل ما تأمر به ستجده إن شاء الله رهن إشارتك"

صمتّ وأنا أفكر ملياً .. غداً الخميس والعيادة لا تعمل ، والجمعة يوم لا تدعه علوية يمر بسلام أبداً .. تورطنى فى دعوة أو حفل أو تطالبنى فى أفضل الأحوال بمبلغ محترم من المال تنفقه هى وابنتاها على المظاهر الفارغة..

قلت ببطء :

- "عاود الاتصال بى فى منزلى صباح الغد .. فقد أستطيع تدبير أمرى".

***

قالت علوية وهى تخلع حليها وتضعها فى علبها بحرص :

- "لا تنس حفل الغـد ، وإياك أن تأتى لى بحجج عن مواعـيد ارتبطت بها وتصل متأخراً كعادتك"

لم أفهم عن أى شئ تتحـدث فتعلقت عيناى بها وكـأننى أنتظر إيضاحاً فهتفت بعصبية :

- "الحفلة التى ستقيمها دولت هانم حماة ابنتك نيفين ."

قلت مذهولاً :

- "ظننتك تمزحين حين قلت إنهـا ستقـيم حفلة بمناسـبة نجـاح ابنها فى الإعدادية !"

فرفعت حاجباً مزججاً بعناية وتساءلت متحفزة :

- "وما وجه المزاح فى قولى ؟"

هتفت :

- الولد نجح بمجموع ٥٣ ٪ !!"

أولتنى ظهرها وقالت باستهانة :

- "المهم أنه نجح" .

شعرت بغثيان مفاجئ ، كثير علىّ أن أتحمل حفل الغد ولم أكد أفيق من آثار حفل الليلة ..

لو حاولـت الاعتذار مـتعللاً بحـاجتى للراحـة ستـوسعنى علويـة لوماً وتقريعـاً لأننى لا افهم فى الأصول ، ولا أبالى إن أحرجت نيـفين مع عائلة

خطيبها المصون ، ولن تسمح لى بالنوم قبل أن أسلم لها بصحة كلامها، وأعاهدها على الذهاب ..

فجأة تذكرت دكتور "كفر أبو صيام" ...

قلت :

- "لكننى مسافر غداً"

حدجتنى بريبة وتساءلت :

"إلى أين" ؟

- "إلى كفر أبو صيام" .

صرخت :

- "ماذا ستفعل فى هذا المكان ؟"

كذبت عليها لأستميلها :

- "عمدة البلد مريض ، إنه يطلبنى بالاسم .. ثم إن العائد المادى من سفرى هذا سيكون كبيراً ."

لمعت عيناها طمعاً وانفرجت شفتاها عن ابتسامة صغيرة :

- حقاً ؟!"

- "وسأكون هنا مساء الجمعة ."

فكرت برهة ثم تمتمت :

- "على بركة الله ... تعود سالماً غانماً ."

ثم أضافت متحسرة :

- خسارة أن يفوتك الحفل .. إنه فى فندق خمس نجوم ..."

قلت بإصرار :

- "إنها مسألة حياة أو موت" .

***

على ضجيج عجلات القطار استرخى جسدى حتى كدت أخلد للنعاس .. أغمضت عينى وابتسمت متلذذاً بإحساس الحرية الذى ملأ أعطافى .. طاب لى أن أستعيد فكرة نجاتى من حفل الخمس نجوم هذه الليلة... إلى الطبيب صابر عبد الله أدين بتلك النجاة .. رنوت إليه بطرف عينى .. أسمر الوجه .. بارز الأنف ... قصير القامة .. ضئيل الجسم .. يحتويه مقعده فى القطار كأنه صبى يقف على أعتاب المراهقة .. يناقض مظهره صوته العميق والإصرار المرتسم على صفحة وجهه .. يرمى بنظره للأمام وكأنه يود لو يسبق القطار إلى هناك .. إلى "كفر أبو صيام" حيث المريضة الشابة راقدة تنتظر ..

- "ما اسمها ؟"

تطلق وجهه لمبادرتى بالحديث .. بدد سؤالى الصمت الجاثم الذى لفنا منذ التقينا صباح اليوم .

- "كريمة صالح فوزان" .

علقت :

- يبدو إنك شديد الاهتمام بأمرها" .

رد بحرارة :

- إنها ابنة الحاج صالح فوزان !! وهو صاحب أفضال علىّ . "

سألته :

- "أهو من أثرياء البلدة ؟"

- "معه ما يستره وأسرته بالكاد .. والله يبارك فى القليل الحلال" .
حدجته متعجباً ، ولا أدرى لم تذكرت علوية ! ... نحيت صورتها بسرعة والتفت إلى مرافقى مستفسراً :

- ما فضله عليك إذن ؟"

- لولاه لما صرت طبيباً .. هو صديق حميم لأبى ولولا تزكيته لتفوقى وتقديره لشغفى بالعلم لما تكبد أبى ما تكبده من مشاق حتى أتم دراستى فى المدرسة .. ويوم ظهرت نتيجة الثانوية العامة جاءنى عم صالح ومعه مبلغ من مدخراته .. دفعه إلىّ بإصرار متغاضياً عن اعتراضى .. وحين صارحته بأننى لا أستطيع أن أقبل عطيته - لأن ردها فى يوم قريب أمر مستحيل - قال لى جملته التى لم أنسها أبداً:

- "ردَ دينى يا صابر أن ترعى أبناء بلدتك ، ألا تهاجر بعلمك إلى العاصمة .. إنهم يحتاجون إليك كما تحتاج الأرض إلى قطرة ماء" ..

ثم أردف :

- "أفلا تظن يا سيدى أنه أحق رجال القرية برعايتى ؟"

***

ما إن وطأت قدماى رصيف المحطة المتهالكة ومعى مرافقى حتى اندفع نحونا رجلان كانا يجلسان على الدكة الوحيدة التى يسمح حالها بتحمل ثقل آدمى ... كانا طويلى القامة ، متينى البنيان ، متقاربى الملامح كأنهما أب وابنه .... رحب بى العجوز بحرارة وامتنان ... شاب ترحابه كدر من يحمل فوق كاهله عبئاً لا قبل له به .. تمتم الشاب بكلمة ترحيب لم أسمعها ومد ساعداً قوياً ليحمل حقيبتى هتفت أحذره وكأننى أخشى أن تسحق قبضته القوية محتويات الحقيبة :

- "انتبه !! بالحقيبة أدوات تتعدى ألوف الجنيهات !"

رفع الحقيبة فوق كتفه وألصقها برقبته ورأسه وتمتم بإخلاص :

- "فى عينى يا دكتور !"

سبقنا الشاب بخطوات .. تركنا المحطة .. تبعته بعينى لكى أتعرف على وجهته .. يمم صوب سيارة انقبض قلبى لمرآها .. فورد من إنتاج الخمسينات.. كلح لونها فلا تكاد تعرف له أصلاً .. الأرجح أنها كانت زرقاء أو رمادية .. معتمة الزجاج بدرجات متفاوتة باستثناء الزجاج الأمامى الذى يشى صفاؤه بجدته .. انتفض سائقها لدى اقترابنا يفتح الأبواب .. استقبلتنى رائحة عطن ممتزج بأتربة تراكمت على مر الزمن فما عاد يصلح لإزالتها شئ .. على المقعد الخلفى جلست والدكتور صابر .. توسطنا الرجل المسن بينما جلس الشاب إلى جوار السائق أغلقت الأبواب فعبقت السيارة برائحة الأنفاس والعرق ... ضاق صدرى وانتابنى شعور بالغثيان فمددت يدى أريد فتح النافذة .. دارت اليد السوداء دورات متتالية بلا نتيجة .. انتبه الدكتور صابر لمحاولتى فابتسم وقال كالمعتذر :

-"النوافذ الخلفية لا تفتح .. ولكن شعورك بالحرارة سيقل حتماً عندما تتحرك السيارة .." جثم على قلبى ضيق ممض .. ما الذى أتى بى إلى المجهول ؟ هناك على الأقل معاناة مألوفة . أما هنا فما أدرانى بما سأواجهه.. البداية لا تبشر بخير .. والسيارة تترجرج فوق طريق ذى نتوءات وحفر .. تلفحنى الرياح الساخنة المتدفقة من النوافذ الأمامية فتهيج حساسية عينىَ .. طال علىّ الأمد منذ ركبت لآخر مرة سيارة غير مكيفة .. سنوات طويلة قد تصل إلى العشرين .. يزاحمنى أربعة رجال فى سيارة واحدة ، يمنعون عنى الهواء ، ويكدرون الجو برائحة عرقهم .. سأفحص المريضة بما أننى قد تجشمت عناء الرحلة لأصل إليها .. غير أنى سأعود ليلاً لا جدال ، أمّا المبيت فشئ غير وارد .. وأما ذلك الخطأ الذى وقعت فيه فلا مجال لتكراره ثانية .

اقتحم الشيخ خواطرى متسائلاً :

- أيوجد أمل فى شفاء كريمة ؟"

أدرت رأسى إليه بملل ... سيبدأ سيل الأسئلة الغثة .. من أين لى أن أعرف الرد قبل أن أفحص الحالة ؟

أدرت رأسى إليه ببطء وأجبت باقتضاب :

- بإذن الله !"

مال علىّ هامساً :

- "لا تبخل عليها بشئ يا دكتور .. وأنا تحت أمرك من جنيه إلى ألف".

- ثم تمتم بأسى :

- "لا أصدق ما حدث لها .. كانت كالوردة النضرة .. لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ."

تسرب إلى قلبي شئ من التعاطف معه .. تذكرت ابنتيّ بحنان .. قلت إنه أب مكلوم في حبة القلب .. يحق له أن يلتمس الأمل .. مددت يدى أربت على ساقه وأنا أقول مشجعاً :

- "ستكون ابنتك على ما يرام بإذن الله يا حاج صالح"

ابتسم الرجل ابتسامة طيبة وقال :

- "أكرمك الله يا دكتور .. لكنني لست الحاج صالح .. أنا جاره .. وكريمة ابنتي مثلما هي ابنته" .

ابتسمت ولم أحر جواباً ، تساءلت في نفسي عما يدفعه لتكبد مشقة الحضور لاستقبالي ، وعما يجعله يعرض عليّ مبلغاً كبيراً في تقديره .. ثم خطر لي خاطر فسألته وأنا أومئ إلى الشاب المفتول العضلات :

- "أهذا خطيبها ؟"

- "ابني ؟ لا يا دكتور .. إنه أب لولدين لقد زوجته صغيراً .. الزواج عفة كما تعلم يا دكتور" .

كتمت فيضاناً من التأملات همّ باكتساحي ، روعني إدراكي أنني لا أعرف أسماء جيراني في العمارة الملاصقة لفيلتي الأنيقة .. لو مات أحدهم لما عرفت بالخبر .. غريب معزول بسور الحديقة عن كل من حولي.. رنوت للعجوز بإكبار فوجدت ملامحه قد اكتست بنبل لم ألحظه منذ التقينا ..

توقفت السيارة أمام بيت من دورين ، أسفله دكان صغير علقت فوقه لافتة باهتة .. "بقالة صالح" .. ها قد وصلنا بعد طول عناء .. أحاط بالسيارة المتهالكة صبية صغار تمخضت عنهم البيوت المتداعية والممرات المتربة .. تسلقوا العربة كقرود مدربة ..

صاح بهم السائق بصوت جهورى فانفضوا عنها وعدوا يتضاحكون .. استوقف العجوز أحدهم وكان طفلاً أشقر يبدو ببياضه وصفرة شعره مختلفاً عن أقرانه ..

- "أخبر الجماعة أن الباشا وصل !"

تطلع إلىّ الصغير بوجه طلق .. ومضت ابتسامة فوق شفتيه الشاحبتين.. قلت لنفسى إنه طفل جميل لولا الأوساخ اللابدة فوق صفحة وجهه ..

في صالة البيت وجدت أربع نساء .. استقبلننى بوجوه أرهقها القلق وعيون يسكنها الرجاء .. أجهشت إحداهن بالبكاء :

- "كبدي عليها .. عين وصابتها .. كانت جميلة كالبدر فى ليلة تمامه"

عاتبتها الأخريات .. زعمن أن بكاءها فأل سيئ .. انهمرت علىّ دعواتهن بالخير وأن يتم الله شفاء الصبية المسكينة على يدىّ .. جلست والدكتور صابر على أريكة متواضعة .. بينما تربع الشيخ المسن على سحارة ضخمة .. انصرف ابنه بعد أن وضع حقيبتى بحرص بين قدمي.

لم أكد أستريح في مقعدى حتى اندفع رجل عبر الباب ووقف منتصباً فى وسط الصالة.. أجال بصره فى الموجودين وابتسم مجاملاً لمرافقىّ ثم انقض علىّ يكاد يضمنى إليه فجفلت للمفاجأة.. أطبق كفين خشنتين على يمناى يحيينى بحرارة واندفع يقص علىّ قصة سقوط كريمة صباح أمس الأول وهى التى لم تشك عمرها من شئ غير عادى..

حاولت أن أشرح له أننى قد سمعت تلك القصة من الدكتور صابر

وأننى لا أستطيع أن أبت فى أمرها بشئ قبل فحصها ، غير أنه كان يتحدث بسرعة واندفاع وبصوت مرتفع بطبعه فضاع صوتى الخفيض فى خضم كلماته ..

ولما انتهى من قصته تلك مال علىّ فجأة خافضاً صوته إلى حد الهمس وقال :

- "لقد سألت الدكتور صابر بعد أن حدث ما حدث فصارحنى بأن مرضها سببه جلطة فى الدماغ .. وأن المسكينة تحتاج لعملية .. وأن .. وأن تكاليف العملية قد تصل إلى عشرة آلاف جنيه .. وأنك .. لا تؤاخذنى .. طبيب مشهور وقد تطالب بأكثر من هذا المبلغ .."

ثم وضع يده فى عبه وأخرجها قابضة على مظروف مطوى على رزمة أوراق ضخمة وأضاف :

- "وهذه ثلاثة آلاف جنيه يا سيدى .. يعلم الله كيف استطعنا تدبيرها أنا والجيران .. وأسألك بكل غال وعزيز لديك ألا تبخل علينا بجهد .. أما باقى المبلغ فأمهلنى أسبوعاً أبيع فيه نصف فدان أمتلكه وعسى أن يبارك الله لى فى الفدان الآخر .."

نحيت يده بلطف وقلت وقد أدركتنى الشفقة عليه :

- "دع أموالك معك الآن يا حاج صالح .... فلعل حالة ابنتك لا تحتاج لجراحة" .

فتهلل وجهه ورفع كفيه داعياً :

- "يا رب يا دكتور يارب ."

عاتبه الدكتور صابر :

- "ألا تدع الدكتور بهجت يستريح قليلاً يا عم متولى ؟"

فرددت عينى حائراً بين الرجلين وتمتمت :

- "ظننتك والد الفتاة !"

تولى الطبيب الشاب الرد موضحاً :

- "هذا عم متولى الصيرفى .. من أمهر المزارعين هنا .. تجود أرضه بضعف أراضى غيره بفضل الله وفضل مهارته ومثابرته .."

تساءلت رغماً عنى :

- "ومع ذلك تريد أن تبيع أرضك من أجل ابنة غيرك ؟"

استنكر قولى :

- "ابنة صالح ابنتى يا دكتور .. إننى لا أنس أبداً يوم ألقى صالح بنفسه فى الترعة لينقذ ابنى من الغرق .. كان طفلاً فى الخامسة وانزلقت قدمه . ولولا شهامة صالح وسرعة تحركه لفقدت ابنى الوحيد .. أفتريدنى أن أضن عليه اليوم بما قد يعيد لابنته فرحتها ؟"

عادت إلىّ إحدى النساء تحمل صينية عليها أكواب الشاى .. تبعتها أخرى تحمل طبقاً كبيراً من الكعك ..

- "فلأفحص المريضة أولاً" .

ارتفعت الأصوات تلح علىّ لأتناول شيئاً قبل بدء العمل .. أذعنت لرجائهم .. والحق أننى كنت بحاجة لما يعيد إلىّ شيئاً من حيويتى بعد عناء الرحلة القاسية . وكنت قد بدأت أشعر بألفة محببة وسط أناس يتصرفون

على سجيتهم .. عامـرة قلوبهم بحرارة الإخلاص ... زاخرة نفوسهم بخير فطرى .. استـرخيت فى جلسـتى وقد زال عن نفـسى الكثيـر من الاستـياء الذى رافقنى منذ بداية اليوم ..

لم أكد أرشف الرشـفة الأولى من كـوب الشاى حتى دلـف إلى الصالة رجل فارع الطول .. مـشدود القامـة على كبر سنه "أشـيب الشعر" قـمحى البشرة .. انحنى أمامى متسائلاً بصوت مهذب :

- "الدكتور بهجت ؟"

أومأت إليه بالإيجاب ...

أردف :

- "أنا والد كريمة ...."

***

على الفراش استـلقت الفتاة فى سكون .. لا يتحـرك فيها سـوى عينين حائرتين تكاد نظراتهما تنطقان بتساؤلهما الملهوف عما جرى لصاحبتهما .

عن يمينهـا جلست امرأة على مـقعـد متـحرك ، أدركت أنهـا أمهـا التى حدثـنى عنها الدكـتور صـابر .. لم تكف يدها عن المرور على رأس الفـتاة بحنان بالغ ... ولم تمل شفتاها التمتـمة بأدعية وآيات ... فى أقصى الحجرة قبـعت امرأتان فى أواسط العمـر يرمقان الـفتاة بإشـفاق .. عن يمينى وقف الدكـتور صـابر متـأهباً لمعـاونتى إن احتـجت إلى شئ .. فتـحت حقـيبـتى وهممت بإخراج أدوات الكشف حين اقـتحم الصبى الأشقر الحـجرة وقال بصوت طفولى محبب :

- "الحاج أبو إسماعيل والحاج محمد والحاج خضر بره يابا صالح."

أشرق وجه الرجل رغم قلقه وصاح بالصبى :

- "شاى بسرعة يا حامد .. وسألحق بك بعد قليل ."

مضت الدقائق بطيئة وأنا أفحص الفتاة الجميلة .. ساد السكون حتى خيل إلى أنهم قد حبسوا أنفاسهم وأوقفوا نبضات قلوبهم ..

تمنيت من قلبى ألا يكون شلل كريمة نذيراً بشر أكبر يتربص بالفتاة.. وددت لو يتمخض الأمر كله عن حال عارض قابل للعلاج .. وألا يكون الشلل الدائم أو الموت هو النهاية الحتمية لتلك الزهرة النضرة .. هفت نفسى إلى بشرى خير أزفها إلى هؤلاء الناس الطيبين ... تذكرت بأسى ضيق علوية بأمى حين مكثت فى بيتى شهرين قبيل وفاتها .. كم ضاقت بها.. وكم زعمت أنها تمتص بتكاليف علاجها ما تدخره لمستقبل البنتين .. أعدت الفحص ثلاث مرات .. وفى كل مرة يزداد اهتمامى بها .. كأنها ابنتى ... كأنها جزء منى .. سرت فىّ روح الإخاء التى تجمع أبناء البلدة .. صرت وإياهم جسداً واحداً يئن لفجيعة صالح فى ابنته ..

رفعت رأسى وتنهدت بحرارة .. هممت بالحديث فسارع الحاج صالح يقول بإشفاق رحمة بابنته وزوجته أن تسمعا ما تكرهانه :

- "ألا نتحدث فى الخارج ؟"

فى الصالة استقبلنا صمت مترقب .. قلت أبدده ..

-"اطمئن يا حاج صالح ! علاج ابنتك يحتاج إلى .."

فسارع أحد الرجال الثلاثة الذين جاءوا مع الصبى الأشقر يضع صرة

على المائدة التي تتوسط الصالة حلّ عقدتها فانفرجت عن أموال كثيرة .. قاطعني قائلاً بحماس :

-"كل ما يحتاجه علاج كريمة تحت أمرك يا دكتور.."

شكرهم الحاج صالح مغضياً :

- هذا كثير يا حاج أبو اسماعيل .. كثير جداً .. بارك الله فيكم ."

اندفعت امرأة متينة البنيان من جانب الصالة فخلعت أساورها ووضعتها في الصرة ، همت بالحديث غير أن صوتها شرق بالدمع فعادت إلى موقفها وهي تنشج بصوت مرتفع .. جلت بعيني في الوجوه السمراء الطيبة .. ما أطهر قلوبهم .. قلوب لم يفسدها الرياء ولا أعمتها الأثرة ..

ابتسمت .. قلت حاملاً لهم البشرى :

- "كل ما تعاني منه ابنتك يا حاج صالح هو تقلص طارئ في أحد شرايين المخ ناتج عن انفعال شديد . يبدو أن فرحتها بقرب الزفاف كانت طاغية .."

حدق في الجميع دون فهم فأدركت أنني نطقت بكلمات أكثر تعقيداً من أن يعيها هؤلاء البسطاء فأردفت موضحاً :

- "ستشفى ابنتك بإذن الله خلال أسبوع واحد دون جراحة أو مضاعفات .. ويوم تقوم وتتحرك سوف يمكنكم أن تعقدوا قرانها .."

في خضم مشاعر الفرحة الغامرة التي اجتاحت كل الموجودين كادت الدموع تنبثق من عيني تأثراً .. لم أشعر يوماً بالعائد السخي الذي تدره مهنة الطب كما شعرت به في تلك اللحظة .. كم كسبت من وراء مهارتي وبراعتي ولكنني أبداً لم أجن مثل ما جنيت اليوم ..

أقسم عليّ أهل البلدة ألا أغادرهم قبل أن أحضر زفاف كريمة .. تتوقع علوية حضورى اليوم أو غداً ولن يمر الأسبوع قبل أن أجد نفسى متورطاً فى دعوة عشاء أو حفل فاخر فى فندق خمس نجوم .. وسأحاول دون جدوى أن أتملص من حفلات الرياء ومقابلة أصحاب النفوس المنشاة بالكبر والخيلاء .. فما الذى يدعونى لذلك ..؟ ما الذى يدعونى لترك هؤلاء الطيبين البسطاء ؟ لم أستخسر فى نفسى أسبوعاً من الراحة فى أحضان طبيعة خلابة تحيى ذكرياتى الباهتة القادمة من عهد الطفولة البعيدة.. حين كان والدى يصحبنى فى الصيف لأقضى أجازتى مع جدى فى بيته الصغير وسط المزارع ..

***

طوال الأسبوع الذى أمضيته فى كفر أبو صيام عشت ملكاً متوجاً على قلوب هؤلاء الناس .. مع مرور الساعات والأيام تخليت عن تحفظى تدريجياً .. انفتح قلبى على مصراعيه وعادت إلىّ بساطتى القديمة ومرحى الغابر .. ضحكت حتى دمعت عيناى .. شربت معهم الشاى الأسود الثقيل وغصت بأصابعى فى طيات الفطير المثقل بالقشدة .. تخليت عن أدوات المائدة ما وسعني .. اشتريت جلباباً ودخنت النرجيلة .. نعمت بالاستيقاظ مبكراً واستقبال أول خيوط الشمس كل يوم ... تنفست هواء نظيفاً .. وعانقت نفوساً نقية .. عشت ضيفاً مكرماً فى بيت الحاج صالح ... القليل الأثاث ... الملئ بالمحبة والنخوة .

أتذكر ثورة علوية فى التليفون وأنا أبلغها بنيتى للبقاء أسبوعاً فى كفر أبو صيام .. تعللت بحرج الحالة فلم تقتنع . راحت ترغى وتزبد ، وتسرف

فى عتـابى لأننى بغيابى هذا لن أحضـر حفل زفاف ابنة محـمود بك راغب وكيل أول الوزارة ... كنت قد نسيت كل شئ عن هذا الحـفل . فابتسمت سعيداً بوجودى فى كفر أبو صيام ..

ذكرنى حـفل زفاف كريمة بحـفل زفاف ابنتى بسنت .... نفس الفـرحة الساكنة فى القلب والسـعادة النابضة فى العروق .. نفس المشاعـر المتضاربة والجهد الخارق لكبت أدمع تناضل لتنسـاب ..

شتان الفرق بين ثراء حفل ابنتى وتواضع حـفل ابنة الحاج صالح .. غير أن السعادة والمشاعر لا يبدو أنهما تتأثران ببذخ أو فقر ..

فى طريق العودة ركـبنا السيارة الفـورد العتيقـة .. عبقـة برائحة الماضى الجميل .. تترجرج بتؤدة على الطريـق كأنها أم رؤوم تهدهد ابنها الغالى .. عبر النوافـذ الأمامية انساب الهواء دافـئاً حنوناً .. أغمضت عينى لأستمتع بملمس الهـواء وهو يطبع قـبلة وداع حـارة على وجنتىّ .. يحـيط بى ثلاثة رجال مدججين بالسـلاح .. يحرسـون جوهرتهم الغالية .. كنزهم الثمين .. يرمقوننى بإعزاز .. سعداء بالمواطن الفخرى لقريتهم النبيلة ...

أما أنـا .. فقـد نعمت بشـعور طاغ بالرضـا بعد أن غسـلت روحى فى ينبـوع الفطرة الصـافى .. وطهـرت قلبى من رواسب الزيف والتـصنع التى علقت به عـــبـر سنوات طوال .. يعلم الله كم تمنيت لو بقـيـت إلى نهـاية عمرى مع هؤلاء البسطاء .. كم وددت لو كنت منهم .

# سلامتك يا دكتور

كانت العيادة غاصة بالمرضى حين دق جرس التليفون ، وبعد برهة دخلت الممرضة تسألنى أن أرفع سماعة الجهاز الموضوع على مكتبى لأتلقى المكالمة ، نظرت إليها عاتباً ، إنها تعلم أننى لا أتلقى مكالمات حين تكون العيادة على هذه الدرجة من الازدحام ، فتلقت عتابى بهزة من كتفيها كمن لا حيلة له وتمتمت :

- "المدام" .

رفعت السماعة وأنا أرمق المريض الجالس أمامى بحذر فجاءنى صوت نبيلة :

- "علوى ... ماذا فعلت مع النجار ؟ لِمَ لمْ تتصل بى لتخبرنى حسب الاتفاق" ؟

وجمت لحظة غير فاهم ، ثم دهمتنى الحقيقة كالوهج فتفصد العرق من جبينى حرجاً ، وقلت متملصاً :

- "أهذا وقته يا نبيلة ..؟"

اعترضت هاتفة :

- "إنها كلمة واحدة وتعود لعملك ، متى سينتهى من أثاث ابنتك ريهام ويسلمنا إياه لنحدد بناء عليه موعد الزفاف "

- لنتحدث فى الأمر حين أعود" .

صمتت لحظة ثم جاءنى صوتها يحمل رنة غضب وقد فطنت للحقيقة:

-"لقد نسيت للمرة الثالثة يا علوى"

عدت أرمق المريض بحرج وتمتمت بصوت خفيض آملاً أن تستشف من حديثى المقتضب أننى لست وحدى فى الحجرة :

- "لن أتأخر فى العودة"

اشتعلت ثورتها وقالت بحدّة :

- "بل ستتأخر مثل الأمس وقبل الأمس ومثل كل يوم .."

- "لا .. لا .. على العكس"

- "كان من الأفضل أن تترك لى موضوع النجار والأثاث ، لكنك زعمت أننى لا أفهم فيه شيئاً ، وأن النجار سيغشنى حين يلمس قلة خبرتى.. وها أنا قد تركت لك هذا الموضوع فماذا كانت النتيجة ؟ ستة أشهر مرت دون أن تذهب إليه ولو لمرة واحدة فى الورشة لترى عمله وتتأكد من جودة الخشب ودقة الصنع ....

والآن تحجم عن الذهاب لترى متى سينتهى من عمله" !

تنهدت برجاء :

- "نبيلة" !

استطردت غير عابئة باعتراضى :

- "ستحزن ريهام حين تعلم أنك قد نسيت أمراً من أمورها الهامة.... خاصة وأن خطيبها أشرف سيتصل بها اليوم من قطر ليعرف منها موعد

الزفاف الذى نريده ليرتب على أساسه أجازته ... وهذه المرة سوف أتركك تواجه دموعها وحدك" .

تململ المريض فى جلسته فقلت بنفاذ صبر لأنهى المكالمة :

- "سأتصرف يا نبيلة ... سأتصرف" .

طالعتنى نبيلة فى الصباح بوجه متجهم ينذر بالمتاعب ، وضعت صينية الإفطار على ركبتى قبل أن أنهض من الفراش وكأنها تجبرنى على البقاء فى مكانى ريثما تنتهى مما تريد قوله ....

ازدردت طعامى بصعوبة وإن حرصت على أن ألقى سريعاً باللقمة تلو اللقمة فى فمى لأوحى إليها بأننى فى عجلة من أمرى ..

- "بكت ريهام كما لم تبك منذ كانت طفلة حتى انفطر قلبى إشفاقاً عليها...."

انشغلت بوضع السكر فى الشاى باهتمام بالغ بضبط كمية السكر فى الملعقة وكأننى أعد لتجربة كيميائية شديدة الدقة ، أردفت نبيلة بنبرة أعلى وكأنها نذير لى أن أكف عن التجاهل :

- "زعمت أننا لا نحبها ولا نهتم بمصلحتها ، ولا نعبأ إذا تسبب انشغالنا عنها فى إحراجها مع خطيبها وأهله" .

أشد ما يؤلمنى حزن ريهام غير أننى لا أستطيع أن أستفسر من نبيلة إن كانت حبيبتى الغالية لا تزال ناقمة علىّ أم لا ... علمتنى السنوات والعشرة أن خير ما أفعله فى مواجهة غضب نبيلة المكتوم هو الصمت وإلا انفجر بركاناً ذا حمم ولهب ...

سلطت عليّ نبيلة نظرات محرقة وأكملت محذرة :

- "وأنا أتحمل اى شئ فى الدنيا إلا أن يتألم أحد أولادى ، ولعلك تعلم أن ريهام غالية عليّ جداً" ..

تمتمت بحنان :

- "وغالية عليّ أكثر" .

ما أسوأ أن يتخلى المرء عن حذره .. جملة واحدة فجرت ثورة نبيلة فصاحت :

- "أنت خير من يتكلم ولا يفعل شيئاً .. لو كانت ريهام غالية عليك حقاً لأوليتها من وقتك أكثر من هذا بكثير ولكنك لا تعبأ إلا بعملك ومرضاك تظن أن شهرتك ونجاحك هما كل شئ فى الحياة ... لا ... لا يا دكتور علوى ... عليك أن تعرف أن ......"

ألهمتنى غريزة حب البقاء أن أصم أذنى عن كلمات نبيلة خشية أن تستثيرنى جملة منها فيزداد الخلاف اشتعالاً وأبادلها صياحاً بصياح ، وأن التزم الصمت ما وسعنى إلا من كلمات مهدئة أتمتم بها بصوت خفيض مثل "معك حق .... أنا مخطئ ... معك حق ... لا تغضبى .... معك حق....."

لولا غلاوتك يا ريهام لما تحملت ثورات أمك العاصفة ... لكن كل شئ يهون من أجلك أنت وأخويك ومن أجل عشرة العمر الطويلة ....

ولما باخ غضبها أخيراً بعد أن نفست عنه وضعت الصينية جانباً ونهضت واقفاً من الفراش مطمئناً ... فالآن وقد خفت نبيلة من غضبها أصبح من

الممكن أن أتكلم وأتحرك في أمان ، بل بات من المتاح كذلك أن أطلب وآمر....

قلت ورنة اعتراض في صوتي تمهيداً لعودة الأمور إلى نصابها فتصبح يدى مرة أخرى هى العليا :

- "حسبك إضاعة لوقتى يا نبيلة .... لقد تأخرت كثيراً عن المستشفى".

هبت واقفة لتلبى طلباتى وسألتنى :

- "هل ستشرب قهوتك هنا" ؟

أشحت بيدى معرباً عن ضيقى وقلت لها :

"لا .. لا ... لم يعد لدىّ وقت" .

هتفت :

-"والنجار"؟

نفخت بنفاد صبر وقلت :

- "هاك رقم تليفون ورشته وعنوانها، فاتصلى به بمعرفتك واذهبى إليه مع ريهام إن أردت.. أما أنا فمشغول... جد مشغول وليس لدى وقت" .

أمسكت بالورقة المكتوب عليها العنوان ورقم التليفون ورمقتنى بنظرة انتصار وكأنها تقول :

- "ما كان من الأول" !

لم يسفر ذهاب نبيلة إلى النجار عن راحة بالى كما كنت أُمنى نفسى، عادت غاضبة ثائرة تتهمه بالسرقة والنصب نهاراً جهاراً ...

- "يجب أن تذهب إليه لتعرفه قدره وتشكمه" .

كدت أضحك من الكلمة وتساءلت مستنكراً :

- "أشكمه ؟ وكيف "أشكمه" في رأيك ؟"

- "لا تجعل من كل شئ مادة لتهكمك يا علوى .. إن هذا النجار ليس إلا لصاً .. كما أنه قليل الذوق .. لِمَ لَمْ تتحر عنه قبل أن تورطنا معه ؟"

صففت شعرى بعناية في المرآة وأنا أسألها متملصاً من الذهاب إلى النجار :

- "ألم يعجبك الأثاث ؟"

- "بلى ولكن .. .."

- "ألم يعدك بتسليمه بعد شهرين كما كنت تتمنين ؟"

- "بلى .. ولكنه .."

- "هل ستنفقين على هذا الأثاث قرشاً واحداً من جيبك ؟"

صاحت مستنكرة :

- "علوى .. أنا أخاف على أموالك فأنت زوجى" .

- "لكن أنا الذى سأدفع ، فلا تشغلى وقتى بأمور ثانوية" .

هتفت معترضة :

- "أنت ترضى أن تُسرق علناً ، ولكنك لا ترضى أبداً أن تجود علينا بساعة من وقتك" ..

قلت برجاء وأنا أعقد ربطة عنقي :

- "اكتبي لي المبلغ الذي يريده النجار في ورقة وضعيها لي بجوار صينية العشاء .. وغداً أو بعد غد يكون المبلغ بين يديك .."

هتفت بغيظ :

- "لا فائدة .. كنت أتمنى أن أثير اهتمامك فتذهب إليه بنفسك لتفاصله.. ولكنني حمقاء لأنني بعد عشرة ثلاثة وعشرين عاماً لازلت أتوقع أن تهبنا من وقتك دقائق أكثر .."

حللت ربطة عنقي لأعيد ربطها بصورة أفضل ، فأكملت :

- "سأصطحب معي أختي نادية .. فإنها أقدر مني على الفصال ، وأكثر حنكة بعد أن زوجت بناتها الثلاث" .

- "حسناً" .

- "أما حفل الزفاف فأشرف يريده أن يكون في الميريديان بينما تفضل ريهام الماريوت" .

- "حسناً" .

- "أشرف يتفاءل بالميريديان لأن زفاف شقيقة وشقيقته قد تما فيه.."

اللعنة على ربطة العنق ما لها لا تريد أن تعقد كما ينبغي ؟

- "ولكن ريهام تقول إن الماريوت ستكون تكاليفه أوفر لأن صفوت طبيب الفندق صديقك وله اتصالات طيبة هناك ..."

آه .. أخيراً نجحت في عقدها كما أحب ...

- "حبذا لو سألت صفوت عن نسبة التخفيض التى يستطيع أن يقدمها الفندق لتتضح الصورة أكثر أمام ريهام وأشرف"

والآن إلى اللمسة الأخيرة التى تكمل الصورة التى ينبغى أن يرانى عليها المرضى فى العيادة اختيار اللون المناسب للمنديل الذى يطل من جيب سترتى .. الأصفر يتمشى لونه مع لون ربطة عنقى غير أنه فاقع فلعله يناسب السهرات أكثر ..

- "علوى .. هل تسمعنى ؟"

كم أود لو أضع المنديل الأحمر ، ولكن لعله يكون من الأحكم أن أتجنب أحد تعليقات نبيلة اللاذعة بشأن السن والوقار خاصة وأنها لم تحول عينيها عنى منذ نصف ساعة ..

- "علوى .. !"

فليكن المنديل الأخضر إذن .. له لون مريح للنفس ، ولا يتعارض مع وقارى كطبيب .. ثم إنه يتماشى منسجماً مع لون ربطة عنقى .... وألقيت نظرة أخيرة على أناقتى فى المرآة قبل أن أمد يدى إلى زجاجة العطر الثمين لأضع منه بضع قطرات يعلن شذاها عنى من قبل أن تقع عين المريض على.. حين صرخت نبيلة بغيظ صرخة أفزعتنى حتى كادت الزجاجة تسقط من يدى وتتناثر شظايها فى المكان :

- "علوى .. كف عن التأنق واسمعنى" .

لم أكن قد سمعت ثلاثة أرباع حديثها ، بيد أننى قلت متهكماً لأنجو من هجومها المفاجئ :

- "إننى فى العادة أستخدم أذنى فى السمع .. ولى من المهارة ما يعيننى على ارتداء ملابسى بيدى وسماع كلامك بأذنى فى نفس الوقت".

زفرت بضيق وسألتنى بتحفز :

- "ما قولك إذن إن كنت قد سمعتنى حقاً ؟ !"

فبهتّ للحظة ثم قلت بنفاد صبر :

- "فيما بعد يا نبيلة ... المرضى لا شك قد ملوا انتظارى" .

قالت برجاء :

- "يا علوى .. أريد أن أنعم بانتباهك لكلامى ولمشاكل الأولاد ولو نصف ساعة فقط كل يوم .. هل مرضاك أهم من أولادك ؟"

سحبت حقيبتى ومرقت من باب الحجرة هاتفاً :

- "اكتبى لى ورقة بكل طلباتك أنت والأولاد وضعيها بجوار صينية العشاء" .

***

مر على وجودى فى العيادة ساعتان أو أكثر قليلا فحصت خلالهما ستة مرضى ووصفت لهم العلاج ، لكن العيادة مزدحمة كالعادة فقدرت أننى لن أستطيع العودة إلى المنزل قبل ثلاث أو أربع ساعات ، هممت أن أدق الجرس أستعجل به الممرضة لتدخل على المريض التالى حين دخلت على ووضعت أمامى بطاقة خالية تدل على أن المريض التالى يزورنى لأول مرة فليس لدىّ بيانات سابقة عنه ، وقالت وهى تغالب الضحك :

- "كشف مستعجل يا دكتور.."

زجرتها بنظرة لائمة فابتلعت ضحكتها وسارعت بالانصراف معتذرة، وطرق الباب ليدخل المريض صاحب الكشف المستعجل ، فما راعنى إلا رؤيتى لنبيلة زوجتى وجهاً لوجه ، ولولا الابتسامة المطبوعة على شفتيها لارتعدت مفاصلى رعباً وظننت أن أحد أبنائى قد أصابه مكروه لا قدر الله.

ولبثت برهة أحدق فى وجهها غير فاهم حتى بددت الصمت بيننا قائلة بوقار :

ولبثت برهة أحدق فى وجهها غير فاهم حتى بددت الصمت بيننا قائلة بوقار :

- مساء الخير يا دكتور" .

تمالكت حواسى وصحت بها :

- "نبيلة .. منذ متى والعيادة مكان للقائنا ؟؟"

قالت ببرود غاظنى :

- "هذا حقى" .

صحت بها حتى كاد صوتى يصل للمرضى فى صالة الانتظار :

- "حقك مكانه البيت لا هنا" !

مدت يدها إلى البطاقة التى وضعتها الممرضة على مكتبى تقربها إلىَّ، وردت بهدوء :

- "ما هكذا تكون معاملة الطبيب لمرضاه" .

وقع بصري على الاسم المدون في البطاقة فوجدته اسم زوجتي دون سواها .. يا للفضيحة .. ألهذا كانت الممرضة تكتم ضحكاتها بالكاد ؟ ما عساها تقول عني ؟ أأصير مادة لتندرها وزميلاتها في المستشفى غداً ؟ ورمقت زوجتي بنظرات من نار بيد أنها لم تبال ، بل اعتدلت في جلستها ووضعت ساقاً فوق ساق وقالت بهدوء :

- "سألت الممرضة وعرفت منها أنك تمكث مع كل مريض ما بين خمس عشرة دقيقة ونصف الساعة ...ولا أظنك تبخل علي بهذه الدقائق... كما أنني قد دفعت ثمنها كاملاً ... فإياك ومقاطعتي ، وإياك والشرود أثناء حديثي معك ..."

ثم ابتسمت ... وقالت بثقة :

- "ألا تسألني ممّ أشكو ؟"

قلت مستسلماً :

- "ماذا تريدين يا نبيلة ؟"

وعلى مدى نصف الساعة استمعت صاغراً إلى كل ما قالته نبيلة عن ترتيبات زفاف ريهام ومشكلة مصطفى في مادة الأمراض الباطنة في عامه الخامس في الكلية واحتياجه إليّ لأشرح له مايغمض عليه فهمه بدلاً من إضاعة وقته في الدروس الخصوصية خاصة وأن مادة الباطنة لا يدرس منها سوى جزء بسيط هذا العام فلا داعي لأن يأخذ فيها درساً خصوصياً واستمعت رغماً عني إلى السخافات التي يرددها ابني الأصغر ياسر الطالب

بالصف الأول بكلية الحقوق الذى يصر على أن يكتفى بهذا القدر من التعليم ويحترف ممارسة كرة القدم زاعماً أنه قام بحساب ما قد يكسبه طوال عمره من المحاماة لو أصبح محامياً لامعاً ، فوجد أن بإمكانه أن يكسب مثله لو احترف كرة القدم لمدة ثمانى سنوات فقط لا غير ، وتوصل إلى أن النتيجة المنطقية لتفكيره الملتوى هى أن يسلك الطريق الأقصر والأضمن ، فهو لاعب بارع ولكنه طالب حقوق متوسط ولا مفر من أن يصير محامياً متواضعاً لا حظ له من الشهرة أو النجاح ...

لما انتهت زوجتى العزيزة من كل ما عندها ابتسمت معتصماً بكل ذخيرتى من الصبر وقلت :

- "أعدك بتنفيذ كل طلباتك ... اكتبى لى ملخصاً بكل هذا الذى قصصته علىّ الآن وضعى لى الورقة بجوار صينية العشاء".

ثم أغضيت متعامياً عن نظرة نارية صوبتها إلىّ من عينين حانقين...

***

فى هذه الليلة بالذات توجهت إلى العيادة مبكراً جداً على غير عادتى، عازماً على الانصراف منها بعد ساعتين على أكثر تقدير .... كانت الليلة هى ليلة زفاف ابنة أحد أعز أصدقائى ...

لكن المرضى هم المرضى .... يظل الواحد منهم يسأل ويسأل .... ويقترح المزيد من الفحوصات والأشعات .... وكأنه هو الطبيب ...ويضيع الوقت فى أخذ ورد ... فكل من عرف من صديقه أو قريبه أنه كان يعانى من أعراض مشابهة وطلب منه طبيبه فحوصات معينة يظن نفسه طبيباً، وأنه

قد ألم بخبايا التشخيص وفنون العلاج .. ويظل يناقشنى حتى يضطرنى إلى أن أهتف به أنني أنا الطبيب لا هو .. وأننى أنا الذى أطلب التحاليل والأشعات إذا رغبت . ولكن لأن المرضى هم المرضى ، فقد تكررت نفس القصة معى هذه الليلة أيضاً .. وضاعت سدى محاولاتى للانتهاء من فحص المرضى بسرعة .

الساعة جاوزت العاشرة ولا يزال أمامى خمسة مرضى ينتظروننى لأفحصهم ، كنت قد وعدت نبيلة أن أمر عليها فى البيت فى التاسعة ، واستفزنى تعقيبها على كلامى بقولها ببرود :

- "حسناً سأبدأ فى ارتداء ملابسى فى التاسعة والنصف" ..

فلم أجد مناصاً من الاعتذار لمرضاى .. وانطلقت بسيارتى إلى البيت أسابق الزمن .

***

- "تذكر متاعبك مع القولون" .

تجاهلت تعليق نبيلة وأكملت بانتقاء كل ما تشتهيه نفسى من الحلوى المزدانة بالمكسرات والكريمة البيضاء الغنية .. ولما عدنا إلى مائدتنا كانت الموسيقى تصدح معلنة استكمال فقرات الفرح الذى أنفق عليه ببذخ ، فمنيت نفسى بالتهام كل ما وضعته فى طبقى فى غفلة من نبيلة التى التفتت إلى المطرب باهتمام .. غير أنها عادت ببصرها إلىّ بعد دقائق وتفحصتنى برهة ثم قالت :

- "يبدو أننا لن نعرف طعم النوم هذه الليلة"

نظرت إليها باستخفاف وقلت متحدياً :

- "إن لى معدة شاب فى العشرين .. فلا تجعلى من حالتك الصحية مقياساً لكل البشر" .

- "لكنك تواجه متاعب من الحين للآخر بسبب إلتهاب القولون" ... .

ضحكت ساخراً رغماً عنى وتساءلت :

- "عجباً .. أأنا الحكيم أم أنت ؟؟"

فردت بسرعة وحرارة :

- "الحكيم ربنا" .

قلت بثقة :

- "وأنا ملاك رحمته !"

***

انتزعنى الألم من أحضان النوم بطعنة قاسية مزقت أحشائى ، ندت عنى صرخة مرقت فى جوف الليل كأنها نذير الشر ....

هبت نبيلة من رقدتها فزعة ، مالت علىّ واللهفة تطل من عينيها ، عجزت عن الكلام من فرط ألمى فاستعضت عن الكلمات بلغة الإشارة ... أشرت إلى معدتى وصدرى .. بدا لى الألم وكأنه قد تغلغل فأصاب كل جزء فىّ .. ومع تكرار طعناته استبد بى الفزع فقد شعرت أنه ينبع من الجزء الأيسر من صدرى ، ومنه ينتشر إلى كتفى ورئتى ومعدتى .. دهمنى هاجس أننى أعانى من ذبحة صدرية لا مراء ... وبقدر ما كنت طبيباً مفرطاً

فى الثقـة والهدوء ، كنت على عكس ذلك مـريضاً هلوعـاً لا قدرة له على تحمل الألم أو الصبر عليه ...

قالت مـحاولة أن تبـعث فى نفسى الطمـأنينة وإن وشى صوتهـا بالقلق الذى تعانيه:

- "لقد أفرطت فى الطعام يا علوى .."

هززت رأسي بعصبـية نافياً التهـمة .. رافضاً فى الوقت ذاته ما اعـتبرته استهـانة بآلامى ، كيف تفسـرها نبيلة على أنـها اضطراب فى الهـضم فى الوقت الذى كنت مـؤمنـاً فـيه أنـنى على وشك الهـلاك من جـراء أزمـتى القلبية؟؟ ...

ناولتنى كوباً عرفت من فوران محتـوياته أنها قد وضعت به قرصاً فواراً يساعد على الهضم . نحيته بعـصبية فكاد يسقط من يدها ، همست بصوت محشرج :

- "قلبى .. قلبى .. اتصلى بالدكتور فوزى ..."

تجمعت سحب القلق تغشى وجهها وقالت بتردد :

- "هل تبالغ كعادتك يا علوى .. أم أنك متعب حقاً ؟؟ .. الساعة الآن الرابعة فـجراً ، وليس من المعقـول أن نزعج الدكتـور فوزى من أجل بعض التلبك فى أمعائك .."

صرخت صرخـة هائلة وأنا أمسك بصدرى ، صرخـة قفزت على أثرها نبيلة تحـاول الاتصال بالدكتور فوزى .. غـير أن التليفون ظل يـدق فى بيته وما مـن مجـيب .. لعنت الأطباء الذين مـاتت مشـاعرهم فـهم يخـرسون

التليفون أو يرفعونه من حجراتهم تماماً أثناء الليل دون أن يفكروا لوهلة ما عساه يفعل مريض يحتاج إليهم احتياج الغريق إلى الهواء ...

تذكرت وأنا بين آلامي وغضبي أنني كنت أفعل نفس الشئ ، فأغلق الزر الذي يجعل التليفون يرن ، ولا أستقبل مكالمات ما بين الثانية عشرة مساء والثامنة صباحاً بحجة أنني إنسان من حقه أن ينال قسطاً من الراحة دون إزعاج ، وأنني لا أنوي أن أظل رهن إشارة كل مريض تصور له آلامه وهماً أنه بحاجة عاجلة لاستشارة الطبيب ...

تمتمت وقد هدني الألم :

- "حاولي الاتصال بالدكتور أسعد إذن .." ..

ها هو طبيب آخر قد نسي القسم الذي أقسمه عندما تخرج ووعده أن يكون في خدمة كل من يحتاجه .. وعاهدت الله لئن نجاني من هذا لأكفّنّ عن قطع رنين التليفون كل ليلة .... وأكون تحت أمر كل مريض في كل وقت ....

شعرت بيد الألم تهصرني هصراً فتأوهت بحرارة ... وهتفت نبيلة بلهفة :

- "لا أحد يرد يا علوي ... وحالك يسوء .. يجب أن تذهب إلى المستشفى .."

***

وجدت نفسي في المستشفى القريب من بيتي وقد تحلق حول فراشي طبيب شاب لا أعرفه وممرضتان ، بينما وقفت نبيلة مع مصطفى ابننا على

مقربة من باب حجرة الكشف ... رفع الشاب رأسه بعد أن فحصنى وقال يلقى بأوامره إلى الممرضتين :

- "حالة التهاب حاد فى المرارة ، هناء .. أعطه حقنة مسكنة ... وجهزى حجرة العمليات .. علية .. ابقى إلى جانب الأستاذ ريثما أتصل بالدكتور عبد الله ليحضر من أجل العملية ..."

استفزتنى الثقة التى يتحدث بها هذا الطبيب حديث التخرج واستفزنى أكثر تلقيبه لى بلقب أستاذ .. ثم من أدراه أن ما بى هو التهاب فى المرارة ؟ ومن أين له بالثقة التى تجعله يتخذ قراراً بإجراء جراحة لى دون مناقشة هذا القرار معى ؟ ..

قلت بغيظ كاتماً آلامى المبرحة :

- "إن صدرى هو الذى يؤلمنى يا .. دكتور .."

رنا إلىّ برهة وكأنما يحاول أن يستشف من هيئتى إن كنت جديراً بأن يشرح لى دوافعه للوصول إلى هذا التشخيص ثم قال بهدوء :

- "صدرك سليم .. كل ما فى الأمر أن الشعور بالألم يرتد أحياناً إلى مكان آخر مجاور لمكان الألم الأصلى" ..

صحت بإصرار ...

- "أريد عمل رسم قلب لأطمئن .."

رد بنفس الهدوء :

- "قلبك سليم يا أستاذ .."

استبد بى الغضب وهتفت رغم الألم :

- "أنا لست أستاذاً .. أنا طبيب" !

لاحت ابتسامة على وجه الطبيب الشاب لأول مرة ...

ثم قال بنفس الهدوء :

"ولكنك الآن مريض ... سلامتك يا دكتور ..."

***

اقتحمت وعيى أصوات غير مألوفة لأناس يتحدثون حولى ، حاولت أن أفتح عينى فخيل إلىّ أن أطناناً من الحديد تشد جفنى إلى أسفل ، وتمنعنى من رفعهما ....

- "لقد بدأ يفيق .."

- "قللى من كمية الجلوكوز يا هناء ..."

- "سيكون على ما يرام يا سيدتى .. فلا تقلقى ..."

- "أشكرك يا دكتور عبد الله ...."

الدكتور عبد الله .. امتلأ صدرى بأبخرة الغضب رغم المخدر الجاثم بثقله على أعضائى وحواسى ... تذكرت أننى اقترحت عليه وأنا على طاولة العمليات أن تتم الجراحة عن طريق المنظار فرمقنى ببرود ثم قال وكأنه قد ضاق بما يسمع من اقتراحات المرضى كل يوم :

- "دكتور علوى .. حبذا لو تعلم أننى أنا الطبيب هنا لا أنت .. وأننى أنا المسئول الأوحد فى هذا المكان عن تحديد أسلوب العلاج .."

ثم اغتصب ابتسامة صفراء محاولاً أن يخفف من وقع حدة كلامه عليّ، فأشحت عنه بوجهى لاعناً صلف بعض الأطباء .. وسوء معاملتهم للمرضى .. ثم صدمتنى الحقيقة المرة .. أن هذا الطبيب يتعامل معى كما أتعامل مع مرضاى حين يتقدمون إلىّ باقتراحاتهم ، فأصدهم بقسوة متجاهلاً أنهم بقدر ما يحتاجون للدواء الشافى لعلتهم ، يحتاجون - ربما بدرجة أكبر - إلى إنسان يبثونه هواجسهم ومخاوفهم بشأن مرضهم .. وانتابنى إحساس طاغ بالذنب اكتسحه سريان المخدر فى عروقى ..

- "متى سيفيق يا دكتور عبد الله ..؟

- "حالاً يا سيدتى .. حالاً .. اصبرى قليلاً أرجوك .."

وأردت أن أصيح به أنه لا يحق له أن يخاطب زوجتى بنفاد صبر هكذا، إلا أن حنجرتى خانتنى فلم يصدر عن فمى المفتوح سوى حشرجة خافتة...

***

انتقلت للدار الآخرة لا جدال ... فالظلام دامس دامس ... والصمت ثقيل الوطأة مريب .. تمزقه بين الحين والآخر آهات تشى بالألم.. شعرت بخوف مبهم يجثم على صدرى ، وغلب على ظنى أننى أرقد الآن فى أعماق الجحيم وحتماً سيأتى دورى لأعذب مثل أصحاب هذه الآهات .

رباه .. ما هذه الكائنات المجهولة ذات العين الواحدة ؟ وما هذا اللهب المنبعث من عينها حتى ليكاد يغشينى .. ينبغى أن أهرب قبل أن أقع فى قبضتهم .. لكن جوارحى لا تطيعنى ... عيناى تدوران برعب فى محجريهما وأنا أرقب اثنين من الزبانية ذوى العين الواحدة يقتربان منى

وعيناهما لا تستقران على حـال ... كيف بالله تتحرك عيناهما يميناً وشمالاً وإلى أعلى وأسفل كل هذه المسافة الكبيرة ؟

آه .. ما هذه الطعنة المؤلمة التي غزتني في ذراعي .. هل بدأ تعذيبي؟

- "حسناً أن أمر له الدكتور بهذه الحقنة المهدئة لينام قليلاً ريثما تزول هذه الهـلاوس من عقله ، وحسناً أن استطعت إعطاءه الحقنة رغم الظلام الدامس بسبب انقطاع التيار الكهربائي وضعف بطاريتي" .

هلاوس ؟ أنا أهـلوس ؟ أنا الدكـتـور علـوى لا أنطق إلا بالعـقل والحكمـة.. أنا .. يا إلـهى .. ومـا هذا الكائن الغـريب الـذى اصطدمت به يدى.. إنه نحيل طويل.... صلب وبارد .. وغصت في الظلام وخيل إلى أننى أفـقد الوعى غـير أن صـوت هذا الكائن النحـيل اختـرق وعيى حـاداً غاضباً :

- "ألا تذكرني يا دكتور ؟؟ أنت الذى تسببت في قتلي وخراب بيتي.."

فهتفت بذهول :

- " أنا ؟ أنا قتلتك ؟"

- "نعم قتلتنى .. ادخلتنى الانعاش في المستشفى الاستثمارى رغم أننى توسلت إليـك أن تتـركنى لأموت على فراشى .... فـى بيـتى ... ووسط أهلى."

- "وهل كنت أعلم أنك ستـموت ؟؟ لقد أدخلتك غرفـة الإنعاش ظناً منى أن في هذا إنقاذاً لحياتك .. هذا ما يقوله العلم ..." .

ضحك الصوت مستهزئاً :

- "العلم ... ؟ العلم يقول إن العلاج يجب أن يكون فى مستشفى استثمارى ؟ ألا يصلح العلاج في مستشفى حكومى ؟ العلم يقول إن فاتورة حساب المستشفى الاستثمارى خلال أسبوعين تلتهم كل شقاء عمرى... وكل ما كافحت لأتركه لأولادى من بعدى ... يعنى موت وخراب ديار ؟؟ خذ أيها الظالم ...' .

مرقت الطعنة فى أحشائى تقطعها إرباً .. آه .. هكذا تكون الطعنة .. طعنة هائلة لا تقارن بالوخزة التى شكتنى فى ذراعى . إذن فقد بدأ التعذيب حقاً .. وها هو عملى الأسود يتجسد أشباحاً مخيفة تأخذ بثأرها منى ....

يا إلهى ..

ما هذا الكائن المخيف ذو الوجه المربع ؟؟ وما تلك الندوب التى فى وجهه كأنها أزرار أو كرات صغيرة متجاورة ..

قلت بصوت مرتجف :

- "من أنت ؟؟ أقسم بالله أننى لا أعرفك ولم أرك قط ."

رد بصوت كالفحيح :

- "بالطبع .. لا تعرفنى ولم ترنى قط لأن النائب فى المستشفى حاول أن يستنجد بك فى جوف الليل فلم ترد على التليفون لأنك دأبت على رفع السماعة كل ليلة ."

دافعت عن نفسى وفرائصى ترتعد :

- "أليس من حقى أن أرتاح ؟ ثم ألا يوجد طبيب آخر غيرى ؟ أى طبيب آخر كان سيرد ويلبى نداءك ."

صاح بغلّ :

- "كلهم قالوا نفس الشئ .. كلهم .. والنتيجة أننى مت دون ذنب .. بل إننى قتلت وأنت القاتل .. أنت القاتل وسأنتقم .. خذ .. خذ .. وخذ ."

صرخت من الألم .. عجباً ؟ .. لماذا يختار الأشباح أن يضربونى فى نفس المكان كل مرة ؟ ألا يوجد فى جسدى كله سوى الجانب الأيمن من بطنى ليضربوه ؟؟

آه لو ينزاح هذا الكابوس المخيف .

قلت متوسلاً :

- "كف يا هذا .. إننى أتعذب .. أعاهدك أننى لن أرفع سماعة التليفون بعد اليوم أبداً ... بل سأظل أحادث مرضاى طوال الليل .. واحداً فى إثر الآخر .. أحادث هذا وأسامر ذاك ، أسليهم وألقى عليهم آخر النكات .. نجنى يا رب .."

عاد صوت الشبح ذى العين الواحدة يحادث زميله :

- "لم تفعل الحقنة المهدئة شيئاً يذكر .. إنه لا يزال يهلوس .."

- "بل لقد هدأ الآن .. انظرى .. لم يعد يشوح بيديه كالمجنون ."

- "معك حق .. يبدو أنه سينام أخيراً ..."

***

مع زوال مفعول المخدر ازددت رثاء لنفسى وإحساساً بضعفى .. وساءنى أن تكون نبيلة قد أدركت بفطرتها جانباً لا بأس به من حقيقة

مرضى .. فى حين اختلط علىّ الأمر بالرغم من غزارة علمى ... وساءنى أكثر أن أجد نفسي راقداً بلا حول ولا قوة تحت رحمة أطباء لا أمثل لهم سوى مريض من بين مرضاهم لا يحق له أن يأخذ من وقتهم الثمين أكثر مما يرونه بحاجة إليه ...

رأيت أن أقتص لنفسى من نبيلة بمعابثتها بقدر ما تسمح لى به حالتى الصحية فغمغمت :

- "عاوز بغبغان" !

مالت زوجتى علىّ تهتف بحنان :

- "علوى .. هل أنت بخير .."

رفعت صوتى قليلاً وعدت أقول :

- "عاوز بغبغان .." !

لمحتها تنظر إلى الممرضة بقلق ثم عادت إلىّ سريعاً محاولة أن تستفهم منى :

- "هل تريد بغبغان أم أنك تسمع صوت بغبغان ؟ إنه صوت جهاز الاستدعاء فى المستشفى"

تماديت فى معابثتها وقد أطربنى لهفتها علىّ :

- "أريد بغبغان .. البغبغان فى الحمام"

دمعت عيناها إشفاقاً وقالت بصوت شرق بالبكاء :

- "ماذا أصابك يا علوى ، إنك تهذى يا حبيبى "

كدت أتمادى فى استدرار عطفها لولا أن الممرضة الواقفة بجوار فراشى كانت تستمع إلى حديثنا أثناء إشرافها علىّ فأسرعت إلى الحمام مطمئنة زوجتى إلى أننى لا أهذى وأن البغبغان هو الاسم الكودى الطبى للمبولة الرجالى .

***

وضع الدكتور عبد الله يمناه فى جيب معطفه بعد أن انتهى من فحصى وقال وهو يبتسم ابتسامة مجاملة لم تمر بقلبه :

- "حمداً لله على سلامتك يا دكتور علوى .. أرى أن حالتك تسمح الآن بمغادرة الفراش ببطء والسير ولو لخمس دقائق فى الحجرة ...."

- "لكننى أشعر بألم شديد ، ولن أقدر على السير ..."

قال وقد عاد الملل يحتل مساحة وجهه ويمحو الابتسامة المصطنعة :

- "للمشى والحركة عقب الجراحات فوائد كثيرة لا تخفى عليك يا دكتور .. فلا تعرض نفسك لمخاطر الرقاد فى الفراش ....".

تشبثت برأيى كالأطفال وقلت بعناد :

- "لكنى أرى من الأجدر أن نؤجل موضوع الحركة هذا يوماً أو اثنين ريثما أشعر بتحسن" .

تخلى الدكتور عبد الله عن هدوئه وشاب صوته شئ من الحدة وهو يقول :

- "أنا لست على استعداد لتعريض سلامة مرضاى للخطر ولو بناء على

رغباتهم .. ولا وقت لدى لأناقش معك أهمية ما أقول .. فلنختصر إذن هذا الجدل الذى لا طائل من ورائه ، ولنتفق منذ البداية على أن المركب يجب أن يكون لها قائد واحد فقط لتطفو .. وفى هذا المستشفى أنا قائد السفينة وربانها أحدد خطوات العلاج ، وعلى المريض أن ينفذها بحذافيرها حتى وإن كان طبيباً وحين تعود بالسلامة إلى بيتك .. لك مطلق الحرية أن تفعل بنفسك ما تشاء .."

رمقته شذراً ، وقلت لنفسى إنه فظ وكريه .. وإنه يستفز المرضى بطريقة معاملته الصارمة لهم .. وظلال الاستهانة باقتراحاتهم تخيم على حديثه ، لعلى نفرت منه لأنه بأسلوبه هذا .. جعلنى أدرك أننى كنت أفعل الشئ نفسه مع مرضاى .. فكرهت صورتى حين رأيتها عن بعد .. وعاهدت نفسى أن ألتزم اللين والحلم حين أعود إلى حياتى الطبيعية بعد فترة النقاهة.. لأضيف إلى نجاحى المهنى وشهرتى عذوبة الشخصية ولين الطباع.. وإن هو إلا سواد الليل ينقضى وأعود بعده إلى بيتى بين زوجتى وأولادي ، وأتخلص من جهامة الدكتور عبد اللّه والرعاية التى تقدمها الممرضات بروتينية لا روح فيها ولا رفق ....

غير أننى لم أخرج كما تمنيت .. ارتفعت درجة حرارتى درجتين .. والحق أننى قلقت ... وذهبت بى الظنون كل مذهب ، فتوقعت من الأسباب أسوأها وخمنت من النتائج أشدها قتامة .. وانطبقت علىّ المقولة الشائعة : إن أسوأ مرضى هم الأطباء لأنهم على علم بكل ما يمكن أن يحدث من جراء مرضهم ...

ازداد قلقى حين رأيت الدكتور عبد الله يتنحى جانباً مع زميل له

يتباحثان حالتي فأرهفت السمع محاولاً أن ألتقط طرفاً من الحديث ، غير أن محاولاتي باءت بالفشل ، فازداد غيظي منه حين أدركت أنه يفعل هذا عن عمد ، تماماً كما يتعمد أن يلقي بأوامره بشأن علاجي إلى الممرضات بصوت خفيض وكأنه قد وجد أن هذه هي أسلم طريقة لأكف عن التدخل باقتراحاتي في أسلوب علاجي ورعايتي ...

وعقب اجتماعهما الثنائي ، أشار إلى الممرضة . فلما أقبلت عليه أسر إليها بأمر لم أسمعه . وإن هي إلا هنيهة حتى عادت إليّ بحقنة ، وعبثاً حاولت أن أجادلها .. فقد كانت هذه هي الحقنة الخامسة التي آخذها اليوم... وكأنه اليوم الدولي للحقن .. ولكن صبراً صبراً ، فغداً أو بعد غد أعود إلى دفء البيت ... وهناك تبدأ راحتي الحقيقية ...

***

– "هل ذهابك إلى اجتماع الجمعية ضروري إلى هذه الدرجة يا نبيلة؟"

نظرت إليّ بعتاب وقالت لائمة :

– "علوي ... لا تتصرف كالأطفال ..."

– "وماذا لو احتجت لطعام أو شراب ؟"

ابتسمت ابتسامة أم يتدلل عليها طفلها وقالت بحنان :

– "سأغيب ساعتين لا أكثر ... وأم الخير عندك في المطبخ إن احتجت لأي شئ ..."

– "ولكنني لن أستطيع أن أتبادل حديثاً مع أم الخير .. أتتركينني وحدي كل هذا الوقت ؟"

رنت إليّ بنظرة أبلغ من كل حديث وكأنها تقول لى "أنسيت أنك كنت تتركنى طوال اليوم وشطرا من الليل ؟"

غير أنها أطبقت شفتيها على ما فضحته نظرة عينيها ثم ابتسمت وقالت:

- "أمامك التليفزيون ، وعن يمينك الراديو ، والتليفون ، وعن يسارك كل ما صدر اليوم من مجلات وجرائد ، ومجموعة كتب خفيفة .. ثم إنهما ساعتان يا علوى لا أكثر ..."

اعترضت :

- "ولكنك تركتنى بالأمس كذلك لتخرجى ..."

قطبت متفكرة :

- "إن لى خمسة أيام إلى جوارك فى البيت لم أغادره ، واليوم هو أول يوم أخرج فيه .."

ثم كأنها تذكرت شيئاً فقد هتفت :

- "إياك أن تقول إنك تعتبرنى قد خرجت لأننى ذهبت مع ريهام للخياطة من أجل بروفة ثوب الزفاف !"

فأطرقت شاعراً بالخجل ...

قالت :

- "علوى ... أكنت تريدنى أن أتركها وحدها فى موقف كهذا كى لا تبقى فى المنزل وحدك ساعة ... ؟"

لم أنبس ....

وكانت قد انتهت من ارتداء ملابسها فمالت علىّ وطبعت على خدى قبلة سريعة وهمست :

- "لا تكن طفلاً ...."

جثم على صدرى شعور موحش بالوحدة ... ومن عجب أننى لم أغضب من انصرافها عنى على غير ما توقعت ... بل إننى رثيت لها من أعماقى .. وأدركت كم كنت جافاً وقاسياً وأنا أتركها وحدها يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع فلا نكاد نجد وقتاً للحديث ونتبادل الأخبار المهمة مكتوبة في قصاصات ورق ...

صحيح أنها نجحت فى شغل معظم وقتها بأمور الأولاد ، واهتمامها بالمشاركة فى أنشطة الجمعيات الخيرية ، ولكن الأولاد كبروا .. وقل احتياجهم إليها .. ورنة الشكوى من كثرة انشغالى عنها وعن الأولاد كانت دائماً تشوب كلامها فكنت أتهمها بالتفاهة وأنها تبتدع مشكلة من لا شئ.. الآن فقط أدركت أنها على حق .. الآن فقط فهمت أنها بحاجة إلىّ كإنسان أكثر من حاجاتها لعملى وعائده المادى ..

إنها زوجة حمولة وطيبة ، وتستحق على صبرها وإخلاصها جزاء أفضل . ليكن عهداً أقطعه على نفسى الا أجعل عملى يطغى على حياتى الأسرية مرة أخرى .. يجب أن أهب أسرتى التى شقيت كل عمرى من أجلها ساعة كل يوم خالصة لهم وحدهم .

***

قلت ونظراتى تستجديها :

- "ألا تقضين ولو ساعة واحدة معى يا ريهام قبل أن تبدئى مشاوير اليوم ...؟

قالت كالمعتذرة :

- "تعلم يا أبى مشاغل ما قبل الزفاف ..."

ثم أغضت حياء وأضافت :

- "لم يبق سوى خمسة أسابيع .."

غاص قلبى فى صدرى ، الصغيرة الحبيبة كبرت وصارت عروساً ما أجملها .. والأيام تترى وإن هى إلا أسابيع حتى تفارق قرة عينى البيت الذى درجت فيه طفلة واستوت فيه شابة فاتنة .

داهمنى شعور ثقيل أننى لم أمض معها وقتاً كافياً يروى الشوق الذى سأكابده حين ترحل مع زوجها إلى قطر .. وأننى أضعت عمرى الهث وراء المال والشهرة وفاتنى أن أتمتع بأجمل ما منّ الله به علىّ .. أبنائى ...

عدت أقول باستجداء :

- "ابقى معى إذن .. أننى لا أكاد أراك ..."

ضحكت ضحكة صافية وقالت :

- "يا بابا أنا أراك الآن كل يوم ... هل نسيت أننى فيما مضى كان يمكن ألا أراك ..... - فعلاً لا مجازا - لأكثر من أربعة أيام متوالية ؟ ... لقد غيرك المرض يا أبى .. إننى حزينة لأن هذا التغيير لم يحدث إلا وأنا على

وشك بدء حياة جديدة .. خسارة أننى لن أستمتع بطباعك الجديدة يا أبى ... إنك تبدو ودوداً وحنوناً جداً .. أحقاً لديك من الوقت ما تود أن تنفقه فى الحديث معى ومعرفة أخبارى ؟" ...

قلت بإخلاص :

- "وسأظل هكذا دائماً يا ريهام ... لقد جعلنى المرض أرى حياتى بطريقة مختلفة وأدرك كم كنت مقصراً تجاهكم .. أعاهدك يا حبيبتى أننى سأهبك كل يوم ساعة واحدة على الأقل خالصة لكم ...."

تدخلت نبيلة فى الحديث لأول مرة وكانت فى الحجرة تطلى أظافرها بطلاء أحمر لامع :

- "بموت الزمّار ..."

رمقتها شذراً وقلت :

- "سترين أننى سأكون عند كلمتى" ....

***

أربعة أيام وأعود لعملى ومرضاى ...

ستة وتسعون ساعة وأعود ....

خمسة آلاف وسبعمائة وستون دقيقة ...

وأغمضت عينى لأهرب من كل تلك الأرقام والأفكار ... بدت لى الدقائق والساعات الباقية أشد وطأة من الأسبوع الماضى كله ... بت ضيق الصدر ببيتى وحجرتى وفراشى ، وثرثرة نبيلة فى التليفون مع أخواتها وصديقاتها ...

كانت تشكو من غيابى عنها ..

كم تساءلت بينى وبين نفسى أين وقت الفراغ هذا الذى كانت تشكو منه إن كانت تملأ يومها بقصص الجيران وأخبار الصديقات ومشاكل الأولاد وطلباتهم ؟ لقد انعكست الآية وصرت أنا الذى أستجدى منها ساعة فراغ تقضيها معى فى حديث يكسر عنى رتابة الملل وقد ضقت بالتليفون والفيديو والمجلات والكتب ...

لعلى ألتمس لريهام عذراً ، فالعروس الجميلة تريد أن تنتهى من كل الترتيبات اللازمة ليكون لديها الوقت كله تمنحه لخطيبها حين يعود من قطر قبيل زفافهما بأيام ...

حتى مصطفى لا وقت لديه ليجلس معى قليلاً نتحدث سوياً كرجلين.. كم تمنيت فى شبابى إنجاب ولد ... وكم فرحت حين جاء مصطفى إلى الدنيا .. ومنيت نفسى بصديق من صلبى ..... رجل بحق ... أعامله كما كنت أتمنى أن يعاملنى أبى ... معاملة الند للند .. لا معاملة السيد لعبيده . ولكن ماذا أثمرت معاملتى له كصديق ؟ أو فلأكن أكثر صدقاً مع نفسى... ماذا أثمر انشغالى عنه بعملى بحجة توفير حياة أفضل له ولإخوته إلا الفتور فى علاقتنا ... فتور غامض لا ينحدر إلى مرتبة الجفوة والتشاحن ، ولكنه يشوب علاقتنا برسميات لم أردها قط ...

ومنذ أيام أردت أن "أرشوه" ليبقى إلى جوارى ساعة فعرضت عليه أن أساعده فى فهم دروس الباطنة كما كان يريد منى فى بداية العام وأنا غارق فى العمل فاقترحت عليه أن يأخذ درساً خصوصياً فيها ... ظننت أنه سيسعد لأن لدىّ الآن من الوقت ما يكفى لأساعده إلا أنه نظر إلىّ بدهشة... ثم قال بعد برهة :

- "ولكننى آخذ درساً خصوصياً بالفعل" ....

- "اعتبر جلستنا معاً جلسة للمراجعة وتأكيد المعلومات" ....

- "آسف يا بابا فليس لدىّ من الوقت ما يسمح لى بأن أسمع نفس الدرس لأكثر من مرة ... ثم إن أسلوب حضرتك سيكون ولا شك مختلفاً عن أسلوب الدكتور فى الدرس ... وهذا سيسبب لى بلبلة .. لا عليك يا أبى لا داعى لأن تشغل نفسك بهذا الأمر .."

خطا خطوة واسعة نحو باب الحجرة غير أنه عاد إلى موقفه مرة أخرى وقال كمن تذكر شيئاً :

- "لو سمحت يا بابا .. أريد أربعمائة جنيه باقى حساب الدرس .."

***

- "نزلة معوية شديدة يا نبيلة" ..

واحتضنتها ريهام بحنان وقالت وعيناها تمتلئان بالدموع :

- "سلامتك يا أمى .."

ثم وجهت إلىّ الحديث :

- "هل ستشفى قبل فرحى يا أبى ؟؟ لم يبق سوى ثمانية أيام .."

- "ستشفى بإذن الله يا حبيبتى إن التزمت بالعلاج . مصطفى .. اذهب إلى الصيدلية وأحضر هذه الحقن الآن لأعطى واحدة لوالدتك قبل ذهابى إلى العيادة .."

هتفت نبيلة رغم شحوبها وضعفها :

- "حقن ؟! لا لا يا علوى .. أنت تعلم كم أكره الحقن .."

قلت بحسم :

- "هذا هو العلاج الأمثل لحالتك " ..

اعترضت :

- "لكنك تعلم كم أكره الحقن" ..

فهددتها قائلاً :

- "الأجدر بك أن تلتزمى بالعلاج إن أردت أن تكونى على ما يرام قبل يوم الزفاف" .

فجادلتنى :

- "لكن خالة أمانى صديقتى عانت من نفس الحالة الشهر الماضى وطبيبها عالجها فى ظرف خمسة أيام دون أن يعذبها بالحقن" ..

زفرت ضائقاً بكثرة جدالها وقلت بحدة :

- "اسمعى يا نبيلة .. إن أردت أن تتولى خالة أمانى علاجك فهذا شأنك .. ولكن إن اخترتنى كطبيب فدعينا نتفاهم منذ البداية على أن شفاءك هو مهمتى .. أنا الذى أقرر نوعية العلاج .. وعليك أنت كمريضة أن تلتزمى به .. وتقومى بتنفيذ كل ما أطلبه منك بدقة .... وارحمينى من الأسئلة فلا وقت لدى أنفقه مع كل مريض لأشرح له حالته ومبررات علاجه بهذه الطريقة أو تلك"..

استدرت أهم بالاستعداد للذهاب إلى العيادة فاستوقفنى صوتها :

- "لكن مرضى هذا سيقعدنى عن أشياء كثيرة كان يجب أن أقوم بها من أجل فرح ريهام ثم إننى كنت أنوى الذهاب مع ياسر لأساعده فى انتقاء بدلة لائقة يحضر بها فرح أخته ، ومصطفى .."

هتفت برجاء :

- "نبيلة .. إن راسى ممتلئ بمشكلات لا حصر لها .. والمرضى فى العيادة فى انتظارى .. لن يحتفظ عقلى بكلمة واحدة مما تقولين .. أرجوك.. أنا فى عجلة من أمرى" .

احتجت قائلة :

- ولكن هذه أمور ضرورية يا علوى .. وأنا لا أكاد أراك .."

- "لا وقت لدى يا نبيلة .. لقد تأخرت " ..

- فما الحل إذن يا علوى ؟؟ "

ترددت هنيهة ثم قلت بسرعة :

- "أكتبى لى كل طلباتك فى ورقة وضعيها لى بجوار صينية العشاء"..

# لبيك اللهم .. لبيك

* فائزة بجائزة نادى القصة عام ١٩٩٦
* نشرت فى مجلة آخر ساعة عام ١٩٩٧

لم تكد زوجتى تضع أمامى طعام الغذاء وقد قاربت الساعة السادسة مساء حتى رن جرس التليفون بإصرار .. رفعت السماعة بخمول وتكاسل.. كنت مرهقاً بعد يوم طويل من العمل الشاق .. لطالما حذرنى زملاء الكلية من التخصص فى جراحة العظام فهو تخصص مرهق ويحتاج إلى جهد جسمانى وعضلى إلى جانب المجهود الذهنى ، انتبهت وصوت صديقى ممتاز الفلكى يبلغنى أن زوجته الحاجة ليلى قد تعثرت أثناء سيرها فى البيت فسقطت فوق ذراعها .. وهى عاجزة الآن عن تحريكها ..

ازدردت بضع لقيمات من طعامى قبل أن أسرع بسيارتى إلى بيت صديقى .. إننى لم أر الحاجة منذ شهور .. آخر مرة رأيتها فيها كانت يوم زفاف وحيدها عمر .. يومها كان كل ما فيها يشى بفرحتها الغامرة.. ابتسامتها المتألقة .. وجهها البشوش .. نظراتها البراقة تتبع بها ولدها أينما ذهب .. كأنما تخشى لو غفلت عنه عيناها الحانيتان لحظة أن تصبه عين حاسدة بسوء وهو عمرها وبهجة حياتها ..

لا شك أن ولدها يذكرها بأبيه فى شبابه فهو صورة منه ، نفس الابتسامة... ونفس النظرة ... نفس العشق للعمل والتفانى فيه .

***

- "يوجد احتمال كبير لوجود كسر فى الذراع فوق الرسغ .. ستوضح لنا الأشعة الحالة أكثر لأستطيع أن أحدد ما إذا كان الجبس سيتم وضعه تحت مخدر عام أم بدونه" .

أضفت مطمئناً :

- "بسيطة إن شاء الله يا حاجة ليلى ".

تمتمت الحاجة :

-"كل ما يأتى من عند الله خير يا دكتور محسن" .

فى مركز الأشعة القريب من منزل ممتاز ، أجرت الحاجة ليلى أشعة على يدها المصابة وإذا بصورة الأشعة توضح أن الكسر يجب أن يوضع فى الجبس تحت مخدر عام .. وفى المستشفى جاءت الحاجة ليلى ومعها زوجها وابنها وشقيقتها وسلفتها .. كوكبة من القلوب المحبة تحيطها باللهفة والدعاء .. فلا عجب أن طلبت منى العودة إلى بيتها عقب إفاقتها من تأثير المخدر ..

بيد أنه بدافع من حذرى من المضاعفات قلت :

- "من الأفضل أن تبقى تحت الإشراف الطبى فى المستشفى ولو لليلة واحدة " .

- "سأشعر براحة أكبر فى منزلى يا دكتور محسن ."

اقترب منى ابنها عمر وهمس فى أذنى باشفاق :

"لن تشعر أمى بالراحة إلا فى بيتنا .. فأذن لها بالذهاب ."

شئ ما فى اهتمام عمر بوالدته جعلنى أخضع لطلبهما فاتصلت بعيادتى وأبلغت السكرتيرة أن تعتذر لمرضاى عن حضورى ، وبقيت إلى جانب الحاجة ليلى أتابع حالتها عن كثب لأرى إن كانت حالتها ستسمح لها بالعودة إلى المنزل أم لا .

عادت إلى ممتاز روحه المرحة فداعبنى قائلاً :

- "أليس (المجبراتى) بأقدر منك على أداء هذا العمل يا محسن ؟"

ابتسمت وأنا أفحص الجزء الظاهر من ذراع الحاجة ليلى مفتشاً عن أية علامات تنذر بحدوث تورم فى الذراع عقب العملية :

- "كتر خيرك يا ممتاز يا أخويا" ...

تمادى فى هزله :

- "صحيح يا محسن ... ألم يستدعوا (مجبراتياً) للملك فؤاد عندما أصابه كسر؟"

رددت له سهم عبثه وتساءلت باسماً :

- "أكنت مدركاً للأحداث على عهد الملك فؤاد ؟؟ والله إننى ما كنت أظنك عجوزاً إلى هذا الحد يا ممتاز"

***

فى صالون المنزل جلست مع ممتاز نحتسى الشاى فى هدوء بعد يوم حافل ومجهد .... تساءل :

- "متى سترفع الجبس عن يد الحاجة يا محسن ؟"

- "بعد خمسة أسابيع بإذن الله ..."

- "ألا تستطيع أن تحدد لى تاريخاً محدداً ؟"

- "وما أهمية تحديد التاريخ بالضبط ؟

-"جاءتنا اليوم تأشيرة الحج وسنسافر يوم ١٩ الشهر القادم بإذن الله"

- "لا يمكننى رفع الجبس قبل يوم ٢٣ يا ممتاز ..."

فأطرق برهة ثم قال :

- "سأحاول تأجيل السفر ما وسعنى .."

فى صباح اليوم التالى استيقظت من النوم فكان أول ما فكرت فيه أن أمد يدى إلى التليفون لأطمئن على صحة زوجة صديقى... من بين أهدابى نصف المغلقة لمحت عقربى الساعة يشيران إلى الثامنة والنصف.. لا يزال الوقت مبكراً ، ولا داعى لإزعاج ممتاز أو الحاجة ليلى الآن ... قمت من فراشى فاغتسلت وتناولت إفطارى ثم اتصلت... جاءنى صوت صديقى ملهوفاً مضطرباً ، ابتدرنى وكأنه ينتظر مكالمتى له :

- "كدت أتصل بك فى السادسة صباحاً .."

ذهب ظنى إلى حدوث تورم أو زرقة فى الذراع كإحدى المضاعفات المحتملة فى مثل هذه الحالات ، غير أن ممتاز فاجأنى :

- "لقد سقطت الحاجة ليلى فى الحمام فجر اليوم على ظهرها وهى لا تستطيع الحركة مطلقاً .."

- يا إلهى .. أبعد أقل من اثنتى عشرة ساعة على إصابتها الأولى ؟

- "سأحضر فى الحال .."

قبل أن أجذب خلفي باب الشقة خطر لي خاطر أزعجني ، ما الذي يجعل الحاجة ليلى تنزلق وتسقط مرتين متتاليتين خلال ساعات معدودة ؟ صحيح أن إصابات الظهر من أكثر الإصابات إقلاقاً للطبيب والمريض على السواء، لكن ما كان يشغل بالي أكثر في تلك اللحظة هو الاطمئنان على أنه لا يوجد مرض عضوي كامن وراء سقوطها مرة بعد مرة ...

عدت إلى الداخل مرة أخرى واتصلت بابن خالتي الدكتور عاصم الطبيب الباطني ورجوته أن ينتظرني ريثما أمر عليه لنذهب إلى بيت ممتاز... وهناك فحص عاصم الحاجة ليلى ... وكم شعرت بالراحة حين انتهى من فحصه ورفع لنا وجهاً باسماً وهو يقول :

- "الحاجة سليمة ولا شئ بها .."

تساءل ابنها بلهفة :

- "وماذا عن ظهرها ؟"

فأجبته : "تمزق في أربطة فقرات الظهر "

ممتاز : "أهو شئ خطير يا محسن ؟"

- "لا تنس أن الحاجة قد أصيبت في ظهرها منذ عشر سنوات .....، وأنها كانت تعاني من انزلاق غضروفي منذ ثلاث سنوات .."

أمّن ممتاز على كلامي قائلاً :

- "نعم ... واحتاجت البقاء في الفراش لثلاثة أشهر متصلة .."

- ستحتاج إلى الراحة التامة هذه المرة أيضاً ولكن لفترة أقل بإذن الله ."

بعد أيام مررت على الحاجة ليلى فسألتني :

- "ألن أستطيع الحج هذا العام يا دكتور ؟"

سارع عمر يجيبها مطمئناً :

- "ستستطيعين بإذن الله يا ماما :"

صمت برهة لأنتقى كلماتى كى لا تخرج جافة قاطعة فتجرح مشاعرها المرهفة ثم قلت بهدوء :

- "يا حاجة .. لقد نويت الحج ... والأعمال بالنيات ... لكن الله أراد أن تصابى إصابتين متتالين إحداهما فى ظهرك ... وتلك الإصابة الأخيرة تجعل الحركة بالنسبة إليك صعبة ومؤلمة ... ولقد أديت فريضة الحج من قبل والحمد للّه ، فلا جناح عليك إن أجلت الحج للعام القادم.."

سالت الدموع من عينيها بغزارة لم أتوقعها وأدارت وجهها بعيداً عنى فارتبكت وقلت بإشفاق :

- "ألا ننتظر حتى أفحصك الأسبوع القادم ؟ .. لعل الله يعجل بالشفاء ؟"

كنت واثقاً من استحالة سفر الحاجة ليلى للحج بحالتها هذه ، وكنت أعلم كذلك مدى الخطورة التى يمثلها مجهود الحج الشاق على ظهرها المصاب ، فلم أكن أنوى أن أصرح لها بالسفر ، غير أن صديقى ممتاز بدا شديد اللهفة على أن يحقق لزوجته رغبتها فى الحج حتى أنه استطاع بواسطة بعض أصدقائه أن يؤجل موعد السفر لما بعد يوم رفع الجبس عن يدها المكسورة ....

- "أنسيت ظهرها يا ممتاز ؟" ....

- "عشمى أن تجد لها حلاً .... .... سأكون أسعد الناس يا محسن لو استطعت تحقيق رغبتها ... أنت تعلم كم هى غالية عندى ... وكم تحملتنى فى سنوات الكفاح ..."

صمت لحظة ثم قال مقترحاً ورنة فرح تشوب صوته :

- "إن كان المشى سيشكل عبئاً على ظهرها فما رأيك لو جعلناها تطوف محمولة على كرسى ؟"

قلت آسفاً :

- "للأسف يا صديقى .. إن اهتزاز الكرسى بين أيدى حامليه وهم يهرولون قد يصيبها بضرر أبلغ ".

أطرق ممتاز بحزن فقلت مواسياً :

- "لقد أدت الحاجة الفريضة من قبل ، فلا بأس بتأجيل الحج هذا العام للعام الذى يليه ."

- سأقدم لك اقتراحاً جيداً يا محسن .. اصحبنا إلى الحج وسأتكفل أنا بكل شئ .. التأشيرة والتذكرة والإقامة ... سأرتب كل شئ فى أسرع وقت."

رمقته بدهشة وهمست :

- "عجبا ... لم أرك متحمساً لأى شئ بهذا القدر من قبل يا ممتاز .

ثم تساءلت :

- "أهو نذر تريدان الوفاء به ؟؟"

***

فى اليوم المحدد لرفع الجبس ذهبت إلى بيت ممتاز ، فتح لى الباب وهمس برجاء :

- "غداً موعد سفرنا ..."

لم أحر جواباً ... لم يكن الأمر بيدى ... كنت أعلم أن كل إصابات الظهر تستلزم الراحة . ومن العبث أن أمنى نفسى أو أمنيه بأمل لا يمكن أن يتحقق ....

رحبت بى الحاجة ليلى بهدوء يخفى وراءه ترقباً وقلقاً ... إلى جوارها جلس ابنها عمر ممسكاً بيدها ، يربت عليها كل حين وآخر ، وكأنما يطمئنها أن كل شئ سيسير وفق ما تريد ...

انحنيت على فراشها أرفع الجبس مستخدماً مقصاً ضخماً ... كان الجو حاراً ... والنوافذ مغلقة فتفصد العرق من جبينى ، بيد أننى لم أتوقف لأبحث عن شئ أجففه به ، فقد خشيت أن أرفع رأسى فتصطدم عيناى بعينى الحاجة ليلى المحملتين بالتوسل والرجاء ...

وإذا بيد ممتاز تمتد نحوى فتجفف لى عرقى باهتمام ، وكأنه يرشونى ، فابتسمت بحيرة ممزقاً بين واجبى كطبيب ومشاعرى كصديق... وأتممت عملى فى جو يخيم عليه الصمت والترقب ، ثم فحصت ذراع الحاجة ليلى، وبينما كنت أفحص ظهرها إذا بممتاز يقترب منى هامساً بصوت مخضل بالدموع :

- "دعها تذهب ، وسأحيطها بذراعى أثناء الطواف ، وأذود عنها الزحام ودفع الناس .... سأفعل أى شئ من أجل أن تذهب الحاجة ..."

تأثرت برقة مشاعره .. ورغبته الصادقة فى تحقيق أمنية زوجته ... وقفت أفكر برهة ثم غلب الصديق فىَّ الطبيب وقلت وفيض من النور يغمرنى :

- "اذهبى على بركة الله يا حاجة وربنا يقدرك .."

أشرق وجهها وهتفت بسرور :

- "بارك الله فيك يا دكتور محسن ... ربك كريم ... هو دعانى إلى بيته... وسأكون فى ضيافته ."

هتف هاتف فى داخلى :

- "ومن دخل البيت العتيق فهو آمن...فدعوت لها بالأمن والسلامة"...

***

والحق أن القلق تمكن من قلبى عقب سفرهما فى اليوم التالى ، ماذا لو تعبت الحاجة ليلى ؟ ماذا لو انتكست ؟ سأعتبر نفسى المسئول الأول عن تعبها لأننى أذنت لها بالذهاب ... أكان الأجدر بى أن أمنعها بحزم من السفر مستجيباً للقواعد المكتوبة فى كتب الطب ؟ أكان من الأوفق أن أصم أذنىّ ، عن توسلات صديقى وزوجته فأمنع امرأة حياتها الإيمان والتعبد من زيارة بيت الله ؟ هذا البيت العتيق الذى بنته الملائكة بأمر الله وحجت إليه قبل آدم .. هذا البيت الذى أعاد سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل رفع قوائمه فصار مقصد الحجاج ومهوى أفئدة المؤمنين ... لا ... ما كنت لأستطيع أن أخيب لمن شع وجهها بنور التقوى أملها .. وما عاد أمامى الآن إلا أن أدعو الله أن يعينها على ما أراده لها فأرادته لنفسها ...

وكلما مر يوم اتصل بى صديقى ممتاز من الأراضى المقدسة فأحدثه وأحدث الحاجة ليلى ... وأعرف منها ما فعلته فى يومها وما تنوى عمله فى اليوم التالى فأصف لها جرعات الأدوية والمسكنات المطلوبة وأبدل لها فيها

كل يوم حسب الحاجة ... صرت أنتظر مكالمة ممتاز لى كل صباح بلهفة واهتمام ، فقد كنت أشعر طوال الوقت أننى معهما ... أعتمر معهما... وأسعى بين الصفا والمروة ... وأطوف بالبيت العتيق ... وأحس كأن روحى تشف ... وقلبى يسمو ... ونفسى تتطهر من أدران الصراعات اليومية . ورغم كل هذا فقد ظل سؤال واحد يحوم فى عقلى حائراً :

هل ستتحمل الحاجة ليلى مجهود الحج ؟ هل ستتحمل الوقوف بعرفة لساعات طوال ..؟؟ لابد من الوقوف بعرفة ... فالحج عرفة .... ولكن يا لها من مشقة على من لديه إصابة فى ظهره مثلها ...وتساءلت بينى وبين نفسى : هل يمكن لحرارة الإيمان أن تتغلب حقاً على وطأة الألم ؟

نمت ليلة العيد وأنا لا أكاد أطيق صبراً فى انتظار مكالمة ممتاز لى.. غداً سأعرف هل يفوز العلم بقواعده الجامدة أم الإيمان بمعجزاته المذهلة ؟

ما إن رن جرس التليفون قبيل صلاة العيد حتى هرعت إلى السماعة ورفعتها إلى أذنى بلهفة ... جاءنى صوت ممتاز ينضح بالسعادة والحيوية وهو يهتف بى :

- "كل سنة و إنت طيب يا محسن ... الحاجة وقفت بعرفة أمس ... وهى بخير ... وروحها المعنوية فى السماء ...."

ترقرقت دمعة فى عينى ، واجتاحنى طوفان من المشاعر الجميلة فغمرنى بسكينة فى القلب ونور فى النفس ... ومن آلاف المساجد فى كل بقاع الأرض انسابت أصوات المصلين تشدو بتكبيرات العيد ....

الله أكبر كبيراً ... والحمد لله كثيراً ... وسبحان الله بكرة وأصيلاً

لا إله إلا الله وحده ... صدق وعده ... ونصر عبده ....

# الفهرس

# المؤلف

## دكتور/ محمود دهموش

- بكالوريوس الطب والجراحة ودرجتا ماجستير فى الجراحة العامة وجراحة العظام .
- دكتوراه فى جراحة العظام .
- استاذ جراحة العظام بالأكاديمية الطبية العسكرية .
- اشترك كضابط طبيب بالقوات الجوية في حرب اليمن - حرب ١٩٦٧ - حرب الاستنزاف - حرب أكتوبر ١٩٧٣ .
- عضو فى جمعيات جراحة العظام المصرية وجمعية جراحة اليد البريطانية وجمعية جراحة الركبة الأوربية .
- أنتج برامج طبية درامية وأذيعت فى العديد من البلدان العربية وعلى أكثر من شبكة تليفزيون .
- حائز على ثلاث جوائز فى القصة من نادى القصة .
- نشرت له مجموعات قصصية فى الأهرام "ملحق الجمعة الأدبى" ومجلة "آخر ساعة" ومجلة "اكتوبر" .
- **مؤلفاته :**

«الحبيب المجنون» - قصص قصيرة - مركز الحضارة العربية ١٩٩٨

«فندق بدون نجوم» -قصص قصيرة - مركز الحضارة العربية ١٩٩٨

«خلف الأبواب المغلقة» - رواية - تحت الطبع

«ثمن الأحلام» - رواية - تحت الطبع

# من قائمة الإصدارات

## رواية .. قصة

| | |
|---|---|
| ليلة العشق والدم | إبراهيم عبد المجيد |
| حمدان طليقاً | أحمد عمر شاهين |
| تباريح الوقائع والجنون | إدوار الخراط |
| رقرقة الأحلام الملحية | إدوار الخراط |
| مخلوقات الأشواق الطائرة | إدوار الخراط |
| دنا فدنلى (من دفاتر التدوين ٢) | جمال الغيطانى |
| مطربة الغروب | جمال الغيطانى |
| دموع إيزيس | حسنى لبيب |
| أحزان رجل لا يعرف البكاء | خالد غازى |
| مسالك الأحبة | خيري عبد الجواد |
| العاشق والمعشوق | خيري عبد الجواد |
| حرب اطاليا | خيري عبد الجواد |
| حرب بلاد نمنم | خيري عبد الجواد |
| حكايات الديب رماح | خيري عبد الجواد |
| فى لهيب الشمس | رأفت سليم |
| أنا كنده | كيروجا ترجمة: رزق أحمد |
| سيرة عزبة الجسر | سعد الدين حسن |
| شجرة الخلد | سعد القرش |
| شهقة | سعيد بكر |
| أيام هند | سيد الوكيل |
| الممنوع من السفر | شوقى عبد الحميد |
| الدميرة | د.عبد الرحيم صديق |
| جسد فى ظل | عبد النبى فرج |
| الفوز للزمالك والنصر للأهلى | عبد اللطيف زيدان |
| ليس هناك ما يبهج | عبده خال |
| لا أحـــــد | عبده خال |
| صعيدى صَح | د. عزة عزت |
| الشاعر والحرامى | عزت الحريرى |
| فى انتظار ما لا يتوقع | عصام الزهيرى |
| إبنارو | د. على فهمى خشيم |
| تحولات الجحش الذهبى | لوكيوس ابوليوس ترجمة د على فهمى خشيم |
| سراديب | عفاف السيد |
| الزجاج المكسور | د . غبريال وهبه |
| ينابيع الحزن والمسرة | فتحى سلامة |
| خبرات أنثوية | قاسم مسعد عليوة |
| ترانزيت | ليلى الشربينى |
| مشوار | ليلى الشربينى |
| الرجل | ليلى الشربينى |
| رجال عرفتهم | ليلى الشربينى |
| الحلم | ليلى الشربينى |
| النغم | ليلى الشربينى |
| الخروج إلى النبع | محمد قطب |
| رشفات من قهوتى الساخنة | محمد محى الدين |
| الحبيب المجنون | د. محمود دهموش |
| فندق بدون نجوم | د. محمود دهموش |
| نسيج الأسماء | منتصر القفاش |
| حافة الفردوس | نبيل عبد الحميد |
| خلف النهاية بقليل | وحيد الطويلة |
| فرد حمام | يوسف فاخورى |

## مسرح ..

| | |
|---|---|
| هذه الليلة الطويلة | د.أحمد صدقى الدجانى |
| اللعبة الأبدية .. (مسرحية شعرية) | محمد الفارس |
| ملكة الفرود | محمود عبدالحافظ |

## شعر ..

| العنوان | المؤلف |
|---|---|
| أول الرؤيا | إبراهيم زولى |
| رويدا بإتجاه الأرض | إبراهيم زولى |
| قصائد حب من العراق | البياتى وآخرون |
| بدلاً من الصمت | درويش الأسيوطى |
| من فصول الزمن الرديء | درويش الأسيوطى |
| كتاب الأمكنة والتواريخ | عبد العزيز موافى |
| إضاءة فى حيمة اللبل | على فريد |
| نصف حلم فقط | عماد عبد المحسن |
| حواديت لفندى | عصام خميس |
| عطر النغم الأخضر | عمر غراب |
| سراب القمر | فاروق خلف |
| إشارات ضبط المكان | فاروق خلف |
| أوراق مسافر | فيصل سليم التلاوى |
| صلاة المودع | صبرى السيد |
| دنيـــا تنادينـا | طارق الزياد |
| إذهب قبل أن أبكى | د . لطيفة صالح |
| الغربة والعشق | مجدى رياض |
| غربة الصبح | محمد الفارس |
| وتس | محمد الحسينى |
| ليالى العنقاء | محمد محسن |
| غنمة فى حجر صيادها | ناجى شعيب |
| العجوز المراوغ يبيع أطراف السهر | نادر ناشد |
| هذه الروح لى | نادر ناشد |
| فى مقام العشق | نادر ناشد |
| ندى على الأصابع | نادر ناشد |

## دراسات ..

| العنوان | المؤلف |
|---|---|
| هاجس الكتابة | د . أحمد إبراهيم الفقيه |
| تحديات عصر جديد | د . أحمد إبراهيم الفقيه |
| حصاد الذاكرة | د . أحمد إبراهيم الفقيه |
| قراءة المعانى فى بحرالتحولات | أحمد عزت سليم |
| ضد هدم التاريخ وموت الكتابة | أحمد عزت سليم |
| ثقافة البادية | حاتم عبد الهادى |
| المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين | خليل إبراهيم حسونة |
| أدب الشباب في ليبيا | خليل إبراهيم حسونة |
| العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى | خليل إبراهيم حسونة |
| أباطيل الفرعونية | سليمان الحكيم |
| مصر الفرعونية | سليمان الحكيم |
| النقد الغائب نظرات فى القصة والرواية | سمير عبد الفتاح |
| رحلة الكلمات | د . على فهمى خشيم |
| بحثاً عن فرعون العربى | د . على فهمى خشيم |
| أعلام من الأدب العالمى | على عبد الفتاح |
| بين الرواية صوت اللحظة الصاخبة | مجدى إبراهيم |
| فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع | محمد الطيب |
| الجات والتبعية الثقافية | د. مصطفى عبد الغنى |

## تراث ..

| العنوان | المؤلف |
|---|---|
| كشف المستور من قبائح ولاة الأمور | د . أحمد الصاوى |
| رمضان . زمان | د . أحمد الصاوى |
| القصص الشعبى فى مصر | إعداد خيرى عبد الجواد |
| إغاثة الأمة فى كشف الغمة | |
| الفاشوش فى حكم قراقوش | |
| الحكمة للدنية لابن المقفع | |

**بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - أطفال .**
**خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.**

*الآراء الواردة فى الإصـــدارات لا تعـبــر بالضــرورة عن آراء يتبناها المركـز*

# فندق بدون نجوم

".. لمّا رفعت عينيها إلىَّ عَرَضاً وهى تقلب فى مجلتها ثبَّت نظرتى عليها وحمَّلتها رسالة إعجاب .. رسمتُ شبح ابتسامة على شفتىّ ؛ إيماءً إلى رغبتى فى التعارف فلم تجفل من نظرتى ، ولا غضبت من طيف ابتسامتى بل سلَّطتْ علىَّ عينين عسليتين واسعتين ..

وردَّت على ابتسامتى المترددة بابتسامة واسعة مرحبة ، وما ان ألقيت عليها بالتحية ؛ حتى ألقت بالمجلة إلى جانبها بإهمال فسقطت على أرضية القطار .."

من قصة
( مطلوب داية )



د . محمود دهموش

- دكتوراه فى جراحة العظام.
- استاذ جراحة العظام بالأكاديمية الطبية العسكرية.
- اشترك كضابط طبيب بالقوات الجوية فى حرب اليمن ، حرب ١٩٦٧ ، حرب الاستنزاف ، حرب أكتوبر ١٩٧٣ .
- أنتج برامج طبية دراميـ[illegible] وأذيعت فى العديد [illegible] البلدان العربية وعلى أ[illegible] من شبكة تليفزيون.
- حائز لثلاث جوا[illegible] القـ[illegible] من نادى القصـ[illegible]

